

ثَوَارٌ فِي رَحَابِ اللَّهِ

عبدالله البردوني

- عنوان الكتاب: ثَوَارٌ فِي رَحَابِ اللَّهِ
- المؤلف ومن هو في حكمه: عبدالله البردؤني
- تصنيف الكتاب: مقالات
- رقم الإيداع: ٣٢٠ - ٢٠٢٢ م
- الطبعة الأولى: ١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٥ م
- التدقيق والمراجعة: جميل مفرّح
- تصميم الغلاف: عبدالملك السلفي
- الناشر: الهيئة العامة للكتاب
- تمويل: صندوق التراث والتنمية الثقافية.

حقوق الطبع محفوظة للناسر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية للطبعة الأولى محفوظة للهيئة العامة للكتاب والنشر والتوزيع- اليمن- صنعاء -ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناسر خطياً.



الهيئة العامة للكتاب والنشر والتوزيع

الجمهورية اليمنية- صنعاء- شارع القصر- تلفون: (٩٦٧-١-٤٩٤٢٨١/٤) فاكس: (٩٦٧-١-٤٩٤٢٨٢) ص.ب: (١٩٧٧٤)
 Republic of Yemen – Sana'a- Al- Qasr St.Tel:(+967-1-494281/4)-Fax:(+967-1-494282)-P.O.Box:(19774)

مقدمة

(ثوار في رحاب الله) حلقات إذاعية كتبها الأستاذ عبدالله البردوني في عقد الثمانينيات من القرن الماضي، وبثتها إذاعة صنعاء ضمن خطتها البرمجية التي تحتفي بها بعيد ثورة ٢٦ سبتمبر، وقد حصلنا على نسخة ورقية من الكتاب مرقما بالتسلسل، وكان الكتاب معدا للطباعة في حياة البردوني حيث وجدناه في وثائق حصر الوراثة مثبتا بالاسم، وبعد الحصول عليه عن طريق عبده البردوني لاحظنا أن الحلقة السابعة مفقودة وكانت تتحدث عن محمد عبدالكريم الصباحي، وتتبعنا سياق الحلقة ضمن محتوى أشرطة كاسيت سلمت لنا من قبل الورثة.

- موضوع الكتاب ومحتواه هو الحديث عن شخص ثورية، ذات تمايز ونقاء ثوري وهي شخصيات مغمورة تجاوزها التاريخ المكتوب للحدث الثوري وتجاوزتها الكثير من المذكرات الصادرة، لكن البردوني من خلال سرده حاول بيان أدوارها في البناء والنشاط الثوري في منتصف القرن العشرين.

- تكمن أهمية الكتاب في قدرته على التعامل مع تاريخ المرحلة بموضوعية، فقد ألمح الى الجوانب الثقافية والسياسية، والاجتماعية، والجوانب الخدمية، وتعامل مع

المرحلة كتاريخ متحرك وفاعل غير جامد، وفي المحتوى الكثير من الحقائق التاريخية للمرحلة، كان النظام الثوري يتحاشى بيانها للناس، مثل التفاعل مع العصر وموقف السلطة المتوكلية من الكثير من القضايا العصرية كالتعليم والبعثات العسكرية والتعليمية والموقف من بعض مظاهر العصر، وذلك في سياق السرد القصصي للشخص.

- لقد كتب البردوني تاريخ المرحلة الثورية في منتصف القرن العشرين - التي كان النظام الثوري يمنع الكتابة عنها - بالتواري والاحتياي والتخفي وراء ترجمة الشخص الثورية حتى يكون شاهد حال لا شاهد زور، كما نجد بياناً لمواقف بعض الشخصيات الثورية التي لم تفصح عنها في مذكراتها.. وقد نجد حقائق صادمة لشخصيات ثورية حاولت أن ترسم صورة مثالية في المذيلة الجمعية للوطن وهي على نقيض ذلك، فالتاريخ اليمني من معاييه أنه يقفز على حقائق الواقع وتاريخ المراحل حتى يرضي المنتصر، وكان المنتصر يطمس تاريخ المنهزم ويعمل على تشويه تاريخ المرحلة وينقص من قيمتها سدا لعجز وهروبا من استحقاق، ولذلك ظلت هناك حلقات مفقودة في تاريخ اليمن القديم والحديث هي وراء حالة التيه والضياع التي وصل إليها اليمن في حاضره.

ونحن في الهيئة العامة للكتاب – في إطار الالتزام الأخلاقي تجاه منتج البردوني – نرى أننا بطباعة هذا العمل قد وفّرنا مرجعاً مهماً لمن يريد أن يكتب عن تاريخ المرحلة الثورية في اليمن في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فالبردوني كان من شواهد المرحلة، ومعروف عنه الصدق الموضوعي في تعامله مع القضايا والإشكالات الاجتماعية والثقافية، وكان مشهوداً له بالإنصاف من قبل خصومه قبل محبيه، وقد كتب كتابه "اليمن الجمهوري" ونشره وفيه من الحقائق الكثير مما كان غيره يعزف عن الكتابة عنها.

لقد كان البردوني ضميراً حياً متحركاً في مسار وتاريخ الحركة الثقافية اليمنية، ولذلك فقد أصبحت كتاباته مرجعاً مهماً، وتاريخاً حياً، كما دلت قصائده أنه كان قارئاً مهماً للتاريخ من خلال قدرته على استدعاء المماثل التاريخي واستشراف المستقبل من بين إشكالات الحاضر، ومن خلال البصيرة بالتاريخ، ولذلك ظل البردوني يعيش كل لحظات المستقبل جنباً إلى جنب مع أجياله التي لا تزال تقرأ البردوني وتجده تعبيراً صادقاً عنها في جل إشكالاتها المعاصرة لها.

لقد عاش البردوني تفاصيل التمرجات الحياتية، واشتغل على الأبعاد الحضارية المختلفة، ووضعها تحت طائلة

النقد، لأنها في مفهومه حالة تطهيرية، ورؤية انتقالية وقيمة حضارية مثلى، لذلك رأينا كيف كان اشتغاله على البعد التاريخي كاكشاف، باعتبار الزمن وعياً بحركة الفعل الذي يرتبط بالزمان الدال على هوية الإنسان الحضارية، ذلك أن عالم البردوني عالم نقي مبدع يخلق عوامل التجدد، لأنه غير مقيد بفكرة مستهلكة معيقة لحركة المستقبل.

وهذا الكتاب يحمل الكثير من الحقائق في سياقه الدلالي العام، وهو جهد كبير يفصح عن حالة الاشتغال التي بذل البردوني جهداً مضاعفاً لبلوغ الغاية منها في سياق مشروع ثقافي كبير هدفه نهضة اليمن واستعادة دورها ومكانتها التاريخية والحضارية.

* * *

عبدالرحمن أحمد مراد

رئيس الهيئة العامة للكتاب

صنعاء - ديوان الهيئة

في ٢ أكتوبر ٢٠٢٢م.

ثَوَارٍ فِي رَحَابِ اللَّهِ:

(١)

عبدالرحمن محمد المحبشي

يقول المثل اليمني أول الثمرة للطير، وهذا من أحسن الأمثال لأن الثمرة أظهر المخلوقات لكونها بنت الطبيعة ولأن الطيور أنظف المخلوقات لأنها تقتات من كل طاهر وتشرب من كل نقي.

فإذا كانت أولى الثمرات أنقى الثمار فإن طليعة الأبطال أشجع المستشهدين... وقد كان عبدالرحمن محمد المحبشي من أول من لبى نداء الشعب فثار، ومن أول من لبى نداء الله فاستشهد.

ولد عبدالرحمن محمد المحبشي في الثلاثينيات من هذا القرن فواكبت طفولته بداية التملل الوطني، إذ كانت تلك الفترة فترة أول معارضة منظمّة، وقد شبت تلك المعارضة في النصف الأخير من الثلاثينيات التي هي عهد ميلاد بطلنا عبدالرحمن محمد المحبشي.

فتمازجت طفولته بأول العهود الوطنية التي تلاحق نضجها فشكّلت أول حركة ذات منهج في الوطنية، وذات دعوة إلى الحكم الدستوري بديلاً عن الحكم الاستبدادي. وإلى حكم شوروي بديلاً عن الحكم الفردي.

غير أن تلك الحركة أخفقت في غاياتها لأنها اقتدرت على إزاحة الطاغية الإمام يحيى فأردته قتيلاً.. وعجزت عن إقامة الحكم الدستوري الشوروي الذي عملت له أكثر من عشر سنوات، وهذه الفترة من بدئها إلى سقوطها كانت مرحلة صبا بطلنا عبدالرحمن بن محمد المحبشي.

* * *

تعلم بطلنا في الخمسينيات وتأثر بجديد الثقافات وبالأخص بالكتابات الثورية والشعر الثائر. انتقل من المتوسطة بصنعاء إلى الثانوية وكانت الثانوية العامة بصنعاء في الخمسينيات وحيدة، إذ لم يكن لها ثاني في سائر المدن اليمنية، فتميز طلاب ثانوية صنعاء بالتطلع إلى المستقبل الأفضل وتتبع أخبار الثورات والانتفاضات في شعوب العالم. وكان طلاب الثانوية بصنعاء يوزعون ما وصل إلى اليمن من جديد الصحف الثورية ومن جديد الكتب الداعية إلى التغيير، فكان طلاب الثانوية من الذين نضجوا فكرياً قبل أن ينضجوا سناً.

فقادوا أول مظاهرة عام ١٩٥٦م ضد العدوان البريطاني الفرنسي والإسرائيلي على مصر، وكانت تلك أول مظاهرة جماهيرية تشهدها صنعاء، وكان عبدالرحمن المحبشي من كبار قادتها ومؤججيهما، وقد لاقى الكثير من أولئك الأبطال قمعاً مدة عام.

وفي عام ١٩٥٧م تظاهر طلاب الثانوية بالهدوء المشحون بالحماس والتحرك الثقافي والاجتماعي وكانوا على أقوى صلة

بشباب دار العلوم وشباب من الموظفين الصغار في سائر المدن، ولما أنهى الصف الأول من الثانوية دراسة آخر عام ١٩٥٧م تفرق أولئك الأفراد في عدة أعمال بعضها وظائف صغيرة وبعضها مهن حرة، فممنهم من توظف في اللاسلكي ومنهم من احترف البيع والشراء في دكاكين صغيرة ومنهم من ظل ينتظر إجابة طلبه في عمل حكومي.

وفي عام ١٩٥٨م صدر القرار الإمامي بافتتاح الكلية الحربية التي افتتحت عام ١٩٤٠م وأغلقت عام ١٩٤٨م وعاد افتتاحها عام ١٩٥٨م، وإلى الكلية الحربية التفت كوكبة من طلاب الثانوية الذين تخرجوا ولم يتوظفوا وبعض الذين توظفوا في اللاسلكي، وكان منهم عبدالرحمن المحبشي الذي جاء إلى الكلية الحربية من المدرسة التحضيرية التي كانت مساوية للثانوية والتي نشأت عام ١٩٥٤م. من هنا تبدى أن أفضل العناصر الشبابية أصبحوا طلاب الكلية الحربية بعد الثانوية والتحضيرية عن تخرج أو عن قطع الدراسة والالتحاق بالحربية.

* * *

شكل افتتاح الكلية الحربية امتزاج الشباب من كل المدارس، إذ التحق بالحربية طلاب من دار العلوم الذين كانوا أعلى طبقياً من طلاب الثانوية، وفي الكلية الحربية ذابت الطبقات وأصبح الكل جيش المستقبل وقوة الشعب.

ولأن الكلية قديمة فقد أصبح افتتاحها الثاني ظاهرة جديدة، إذ اختلف معلمو الكلية الحربية وأساتذتها عن معلمي الأربعينيات. إذ كان التعليم في الأربعينيات على يد بعثة عراقية خاصة.

أما أساتذة الحربية الجديدة فقد كانوا من أكثر من فُطر، من مصر، من الأردن، إلى جانب الخبراء السوفييت الذين دَرَّبوا على الأسلحة السوفيتية الجديدة.

أمضت الدفع الأول من الكلية الحربية أربع سنوات أي من عام ١٩٥٨م إلى آخر عام ١٩٦١م، وكانت تلك الفترة قوية الحساسية نحو العسكريين، لأنها فترة الثورات العسكرية. فرأى المقام تمزيق وحدة أولئك الضباط الخريجين فوزعهم على عدة مراكز في المدائن، ولكن الأحداث المتتابة غيّرت المقاييس، ففي الوقت الذي ازداد فيه خوف الإمام من العسكريين انفجرت الثورات القبلية وبالأخص حركة خولان التي شبت بعد حركة حاشد وذو محمد واستعصت على الخمود العسكري فاضطر الإمام إلى الجيش وإلى بعض العناصر الذين تخرجوا من الكلية الحربية وإلى أفراد من الدفعة الثانية أو الذين أُضيفوا إلى الأولى فتمكن أفراد من خريجي الكلية الحربية من استعمال السلاح الجديد ضد القبلية المتمردة. ودل على الاطمئنان إلى الخريجين أنهم لم يظهروا تذمراً واضحاً من العهد السياسي كالقبليين والمدنيين، بهذا أمكن ضباط الكلية الحربية والضباط الذين تخرجوا من الكليات العربية والأجنبية أن يشغلوا مراكز عسكرية تحت قيادة إمامية كأمر الجيش النظامي وأمر الجيش الدفاعي. ونتيجة ارتباك الإمامة وقوة تذمر الشعب وصل

الضباط أو أكثرهم إلى مراكز قيادية متوسطة مثل إدارة الكلية الحربية، إدارة مدرسة الطيران، إدارة كلية الشرطة وقيادة جيش البدر وإدارة مدرسة الأسلحة.

فكان عام ١٩٦٢م بداية الوجود العسكري اليمني المنظم، وكان عبدالرحمن المحبشي من طليعة الدفعة الأولى التي تخرجت عام ١٩٦١م، ومن الطليعة التي فكرت في إنهاء العهد الإمامي وقيام العهد الجمهوري وفي ليلة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م خرج الضباط على ظهور دباباتهم لإرغام قصر البشائر على التنازل فاحتلت دبابة عبدالرحمن المحبشي الجهة الشمالية الغربية من قصر البشائر، وكان الغرض إرغام البدر على التنازل.

ولما قاوم قصر البدر الدبابات التي تمركزت في ميدان التحرير وفي شمال غرب القصر اضطرت تلك الدبابات إلى قصف القصر تحت مقاومة عنيفة من المدافع الرشاشة الثقيلة، وكانت الدبابات التي أحاطت بالقصر ثلاثاً: دبابة محمد السراجي في ميدان التحرير، دبابة عبدالله عبدالسلام صبرة واحتلت الباب الخارجي لقصر البشائر، على حين احتلت دبابة المحبشي شمال غرب القصر على بعد ١٠٠ متر.. ونتيجة قرب دبابة المحبشي من القصر أصبح في متناول ناره فتمكن المقاومون من إحراق دبابته بعد مقاومة عشر ساعات.

إذ احترقت دبابة المحبشي في ضحوة ٢٦ سبتمبر، وكانت أول دبابة احترقت بمن فيها في ذلك اليوم. وكان عبدالرحمن

المحبشي وزميلاه أوائل الشهداء. لأنهم أول طريق النصر،
ولأن الوطن الذي يعطي الشهداء هو الذي يمتلك أعنة النصر.

فعبدالرحمن المحبشي أول شهيد في أول أيام الثورة، وأول شهيد
تمحورته هذه الحلقة من البرنامج، كما سوف تتمحور زميليه
حلقات أخرى من هذا البرنامج المكرس للذين سبقوا إلى رحاب
الله في عهد ثورة سبتمبر المجيدة.

(٢)

محمد صالح الشراعي

إذا كان الجيل الأول من هذا العصر تحمل أعباء التحرير من العهد العثماني ومهمة تأسيس الحكم الوطني فإن الجيل الثاني عانى الانشقاق بين موالين للحكم وبين معارضين له.

ولعل الجيل الثاني برغم انشغاقه إلى صفين قد أحدث العكس في الجيل الثالث الذي ولد أفراده في الثلاثينيات وأول الأربعينيات وتفتح صباه وبدء شبابه تحت أجواء الخمسينيات. وهذا هو جيل ثورة سبتمبر.

وإذا أمكن تلمس الظواهر الشعبية فإن الجيل الثالث كان أوفر حظاً، لأنه جاء في أوانه وكان تفكيره وأحلامه ممتزجة بأحلام الشعب اليمني كله، فقد عانى الجيل الأول عدم الاتفاق ضد الأتراك، إذ كان البعض يرى الأتراك من الأمة الإسلامية فلا يستبشرون دماءهم، على حين كان البعض أقوى حماساً ضد الأتراك عن نزوع مذهبي. كذلك كابد الجيل الثاني من المثقفين الانقسام حول الحكم الدستوري والحكم الفردي وكان الشعب بمعزل عن تفكير مثقفي الأربعينيات. إذ لا علم له بنوايا الدستوريين وأشخاصهم إلا عندما ظهوروا كقادة بعد الإمام يحيى عام ١٩٤٨م.

أما الجيل الثالث فقد كان تفكيره تفكير الشعب، إذ عم التذمر كل أرجاء اليمن من سلطة الإمام أحمد وأتباعه لأنه كان محروماً من القداسة التي خلعها الشعب على أبيه، ففكر الشعب فيه كحاكم مسئول عن أمن الشعب ورخائه وضمان حرية بنيهِ.. ولعدم انسجام الحكم في الخمسينيات مع رغائب الشعب، كان الثوار والشعب منصهرين في وجهة واحدة هي تغيير الحياة سياسياً واجتماعياً، وإن كان هناك اختلاف فعلى كيفية التغيير.

هل يقوم بإمام يتبنى مطالب الشعب أم على انفجار ثورة تضع الحكم الشعبي مكان الحكم العائلي؟

إذن فاختلاف الخمسينيات على الكيفية وليس على الأساس. وكان الثوار من غمار الشعب إذ جاء العسكريون إلى الكلية الحربية وكلية الشرطة ومدرسة الطيران من غمار الشعب. جاؤوا من بيوت الفلاحين الفقراء ومن بيوت الفلاحين الميسورين فتقاربت الطبقات أو اتحدت في المهمة الثورية.

ولعل بطل هذه الحلقة محمد الشراعي أصدق مثل على شعبية الثورة وغاياتها الشعبية كما سوف نرى.

* * *

نشأ محمد الشراعي كزميله عبدالرحمن المحبشي في ظروف الإرهاب الثوري وتحت تأثير الخمسينيات بمستجداتها وتغييراتها محلياً وعالمياً، لأن اليمن جزء من العالم الذي سارعت فيه التغيرات من بعد الحرب العالمية الثانية.

فتهيأت فرص جيل الخمسينيات للتحرك الثوري وللثقافة الثائرة ولاقت الأفكار الثورية مناخاً أصح من مناخ الإصلاحيين الدستوريين الذين أرادوا في مطلع الأربعينيات إصلاح الأوضاع لا تغييرها.

أما شباب الخمسينيات فإن أمامهم مهمات صعبة ولكن في ظروفها الممكنة، إذ تهيأت إمكانية الثورة بدليل السخط الذي شاع على الأوضاع العامة.

كان الفلاحون يتفجرون سخطاً على تجاوز الزكوات نصابها الشرعي، وكان العمال يضيّقون من أجورهم التي لا تتجاوز ثمن الريال، وكان سائقو السيارات يخوضون أعنف المشقات لغياب الطرق المعبدة من عدن إلى صنعاء والعكس، حيث كانت الرحلة من تعز إلى صنعاء تستغرق ما يزيد على ثلاثة أيام نتيجة صعوبة الطرق وبالأخص في مواسم الأمطار.

وكان الشعب يعرف ما استجد على العالم من سهولة المواصلات ورصف الطرقات وانتشار المشاريع الزراعية وإقامة النقابات العمالية.. بهذا اتسع السخط على الأوضاع الإمامية عن حسّ تغييره، وكان طلاب المدارس المتوسطة والثانوية الذين شكلوا غالبية الكليات العسكرية أقرب إلى حسّ الشعب، لأنهم شركاء في معاناة العمال والفلاحين وصغار الموظفين والباة، وكان محمد الشراعي في النصف الثاني من الخمسينيات شعلة نشاط لاستطلاع أحوال الشعب وتلقط أخباره وحكاياته التي تدور في المجالس والأسواق والطرقات حتى سماه زملاؤه في الثانوية والكلية الحربية بالوكالة المتنقلة.

كان يروي أخبار الأمطار وأخبار الشجارات في المناطق وأبناء السجناء وأعدادهم وكيفية معاملاتهم في السجون ونوع التهم التي تقدم إليهم، كذلك كان الشراعي على أقوى صلة بموظفي الدوائر وقلة مرتباتهم وعلى دراية بأصحاب الحظوظ الذين نالوا مرتبات أعلى بفضل شفاعات أو قرابات أو بفضل الرشوات.

وكانت تلك المعلومات التي يقدمها الشراعي في غاية الأهمية، لأنها كانت تكشف الأحوال السياسية والاقتصادية معاً.

ولم يتمتع شاب بالاهتمام الذي تمتع به محمد الشراعي، إذ كان يهتم بكل ظاهرة قروية أم مدنية وإن كان أقل قدرة عن استنباط الأسرار من كل ظاهرة.

* * *

إلى جانب تتبع الشراعي أطوار الناس وأحوالهم، كان قوي العلاقة مع أكثر القطاعات وكان يكون الصداقة بينه وبين من يلاقيه في أول لقاء.

فشكلت شخصيته الاجتماعية جسر اتصال بين المثقفين الثوار، فكان يتولى توزيع الكتب التي ترد من الخارج على المهتمين بالثقافة، إذ كان يحدد مدة لإعارة كل كتاب لكي ينتقل من قارئ إلى قارئ في أقصر مدة ممكنة.

وكان سبب اهتمامه بالكتب الثقافية يرجع إلى اهتمامه الشخصي بقيمة الكتاب الثقافي رغم تواضع تعليمه، وقد عُرف عنه أنه

يقرأ الكتاب أكثر من مرة وكان يقول ليست القراءة نزهة في
بستان وإنما هي دخول في أفكار كل مؤلف.

* * *

التحق محمد الشراعي بمدرسة الأسلحة عام ١٩٦٠م، وكون
أمتن علاقة بين العسكريين في مدرسة الأسلحة وفي الكلية
الحربية، كعادته في تمتين العلاقات والاحتفاظ بالصدقات
وتعزيزها، حتى قام بأكبر المهمات في أسبوع الثورة، إذ اتصل
بأصدقائه وزملائه الموظفين في اللاسلكي وبيت الهاتف، وفي
ليلة الثورة قام بالاتصال بزملائه الذين أوقفوا اللاسلكي وقطعوا
حرارة الهاتف عن بيوت المسؤولين.

وفي الساعة ١٢ من ليلة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م كان هو
وعبدالرحمن المحبشي ومحمد الحنكي في دبابة واحدة.

كان محمد المحبشي رامياً يتولى إطلاق القذائف وكان محمد
الشراعي مُعَمِّراً وكان محمد الحنكي سائق الدبابة التي رابطت
في الشمال الغربي من دار البشائر، وكانت الدبابة الوحيدة في
ذلك اليوم التي احترقت بالبترول الذي انصب عليها عند اقترابها
منه في حركة مناورة أمام النار التي كانت تنهمر من قصر
البشائر فاحترقت بمن فيها.. وكان الثلاثة الأبطال طليعة
الشهداء.

فكان محمد الشراعي ثاني عبدالرحمن المحبشي في المهمة
العسكرية وقرينه مع الحنكي في شرف الاستشهاد.

لقد عرف عن الشراعي اهتمامه الشعبي وقوة صلاته بالأناس الشعبيين، كذلك عُرف عنه الاستهانة بالموت فعندما احترقت به وزميلييه الدبابة كان يقول.. لا قتال بدون قتلى ولا إحراق نار بدون رماد.

وكانت هذه الكلمات منطبقة على مقولاته قبل الثورة فقد قال ذات يوم: **إذا فشلنا فما دخلنا العسكرية إلا لكي نموت.**

وكانت ثقافته من الأشعار والكتابات تغذي استهائته بالموت وأصالته في الشجاعة، فقد كان يضحك من زملائه الذين يرددون محفوظة المدارس ويقول لقد استجدت أشعار كثيرة وكتب كثيرة وما تعلمنا في المدرسة إلا أضعف الشعر، وكان من محفوظاته قصيدة أبي القاسم الشابي **(إذا الشعب يوماً أراد الحياة)،** وقصيدة كمال عبدالحليم **(إصرار)،** وقصيدة الشابي **(يوم الطغاة).**

وكان شعر تلك الفترة من النوع الثوري ومن الطراز المباشر في الدعوة إلى التحرك والتغيير، لأن الشراعي كان قوي الالاقة يلتقط من المقروءات ما تقع عليه عيناه ويستظهر من المسموعات ما يقع على سمعه، وكان يختار من الثقافة الشعرية والكتابية ما يتقد بالثورة ويتألق بالوطنية، وكان يشترك مع زملائه الذين يميلون إلى الثقافة الضحلة أو الشعر العاطفي، فكان يسمى قصائد نزار قباني عقود بنات، لأنه يرى ذلك الشعر يجسد حب مراهاقات ومراهمين ولا يحمل مدأ ثورياً.

وكان ينقد الشعراء اليمنيين الذين يشتغلون بأوصاف الطبيعة
وبالتعبير عن الذات ويعتبرهم غير منسجمين مع واقع الشعب
الذي يريد أن يثور ويحقق وجوده الحي.

كان الشراعي يشترك مع كوكبة من زملائه في الميل إلى الثقافة
الحية المسئولة بمقدار اشتراكه مع زملائه في ضرورة انفجار
الثورة الشعبية.

وحين حان وقت تنفيذ الثورة قام الشراعي بعدة مهمات اتصال
كما سبق التنويه.

ثم دخل الدبابة التي كانت نعشه إلى رحاب الله.

(٣)

محمد علي الحنكي

تولى محمد علي الحنكي قيادة الدبابة التي احترقت به وبرفيقيه المحبشي والشراعي صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر، فكان ذلك الاستشهاد تنويجاً تاريخياً للثلاثة الشهداء الذي سبق الحديث عن اثنين منهم، وكان محمد علي الحنكي لا يقل معاناة ووعياً عن رفيقيه كما يشهد تاريخ قيادة السيارة في بحر الخمسينيات وبداية الستينيات، وهذا يبرر الرجوع إلى أول المرحلة.

من مطلع الأربعينيات توالى ظهور السيارات الشاحنة التي كانت تنقل البضائع من عدن إلى مدائن الشمال ومن الحديدية إلى صنعاء.

وكانت البضائع في المدائن الأقرب من مصدر الاستيراد أرخص سعراً، فكانت في ذمار أرخص من صنعاء وفي يريم أرخص من ذمار وفي القاعدة وتعز أرخص من يريم، وذلك لأن مشقة الأسفار بالسيارات في غاية الشدة لوقوف الجبال الشاهقة في الطرق غير المعبدة، وكان أشق هذه الجبال جبل سمارة في طريق صنعاء تعز ونقيل يسلمح في طريق ذمار صنعاء ونقيل المصنعة في طريق صنعاء الحديدية.

أما السيارات الخاصة فكانت في الأربعينيات لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.

ومن بداية الخمسينيات بدأ تكاثر السيارات وبتكاثرها تكاثر قائدوها وكان الذين يسوقون السيارات مثار إعجاب الأجانب الذين يزورون اليمن، لأنهم مارسوا هذه المهنة دون دراسة في معاهد هندسة أو تدريب في ورشات، وإنما عرف بعضهم البعض فكانوا يقودون السيارات بدون تعليم ويصلحون الخلل في كل سيارة بالخبرة والتجربة.

وكان يتحول معاون قائد السيارة إلى قائد بعد فترة، فتحول كل مساعد قائد إلى قائد يحتاج إلى مساعد.

هذه السيارات الشاحنة كانت تجوب اليمن من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله. فكيف تعلم أبناء المدارس وسائر أبناء المدائن قيادة السيارة؟ لهذا المهنة بداية أخرى.

* * *

انتشرت من منتصف الأربعينيات الدراجات العجلة ولاقاها المحافظون في المدائن بأغرب استنكار غير أن هذا الإنكار لم يعق انتشارها وتكاثر استعمالها.

وكان الذي يتعلم قيادة هذه العجلة يستوعب بسرعة قيادة الدراجة النارية ويستوعب أسهل قيادة السيارة.

ولعل شهيدنا محمد علي الحنكي تطور على هذا النحو، كان أمهر قائد عجلة ثم أبرع قائد دراجة نارية، ثم ساق ناقلة مدة

شهور ولما وصلت صفقة الدبابات السوفيتية عام ١٩٥٨م تحول من جندي إلى قائد دبابة وكان من أمهر القياديين لهذه الآلة الضخمة، وكانت تلك الدبابات تحتاج إلى قائد ومعمّر ورام وكان محمد الحنكي هو قائد الدبابة التي احترقت به والشراعي والمحبشي.

* * *

تعود الحنكي خوض الأخطار من بداية تعامله مع الآلة وتعامله مع البندقية، فقد قاد سيارة جنود إلى البيضاء سنة ١٩٥٣م وكان يقاتل مع الجنود الذين يحملهم الحملات الاستعمارية التي كانت تشن الغارات تلو الغارات على الشطر الشمالي من الشطر الجنوبي وبالأخص لواء البيضاء ومناطق حريب.

وفي عام ١٩٥٣م تبدت جراءة الحنكي أمام الهجمات الجوية الإنجليزية التي استهدفت منطقة الصومعة، إذ كان الحنكي لا يخاف ذلك القصف الذي لا عهد له ولزملائه به.

ونتيجة شجاعته واستفادته من كل طارئ أشار على زملائه بضرب الطائرات المغيرة برصاص البنادق التي كانت تحلق على ارتفاع منخفض لغياب المدافع المضادة.

وذات يوم صوب الحنكي على طائرة فأصاب منها مكاناً حساساً فأسقطها برصاص بندقية، فكان هذا أعظم حدث في ذلك الحين، وتساءل المتسائلون عن محمد الحنكي وتبلبل المعسكر الانجليزي وحقق في كيفية سقوط الطائرة وكيف نجح الجندي في إسقاط طائرة ببندقية.

كان محمد الحنكي يحكي لزملائه عن الثقب الذي رآه في الطائرة وصوب إليه الطلقة وكان يقول عرفت أن تلك الفتحة متصلة بالبنزين وأنها رقيقة يمكن اختراقها برصاصة.

وعُرف محمد الحنكي في الخمسينيات ببطل البيضاء، كما عُرف بأنه قاهر الجبال بكل سيارة شاحنة يقودها، ولما جاءت الدبابات كان أمهر قائد دبابة وكان ذلك الزقاق الذي وصلت إليه دبابته من شهود مهارته، لأنه ضيق، ولا يزال ذلك الممر كما كان إلى اليوم إذ يقع شمال قصر البشائر.

ولابد أن ذلك الاقتحام برهان الوعي الثوري ودليل الاستماته في سبيل الوطن.

وهذا يدلنا على أن الحنكي كان واعياً عن ثقافة اختبارية وفكرية.. فكيف كان ينتقف هو وأمثاله الذين لا يتجاوز تعليمهم الابتدائي المتواضع؟

* * *

كان أصحاب الهموم الوطنية أقوياء الاهتمام بأخبار العالم وتفجرات الشعوب وحركات الجماهير عن طريق المذياع، الذي كان له في الخمسينيات أبعد الأثر في المدائن والقرى وكان محمد الحنكي لزيم جهاز الراديو يتتبع الأخبار من كل مذياع ويعرف مواقيتها.

كذلك كان يجالس أفضل الناس ثقافة وأقدرهم على التحدث الممتاز. وكان يلصق بوعيه كل فكر، لأنه كان يحسن الاستماع

والالتقاط، فقادته رغبته الثقافية إلى بذل الجهد في قراءة الكتب والجرائد، وبإدمان القراءة استطاع أن يفهم كثيراً.

وكان يشكو من صعوبة بعض الكتب ومن ميله فكان يسمى الكتاب الصعب الملعون.

لأنه يريد استيعابه ويستعصي عليه. غير أن الإلحاح يفتح أقوى الأبواب فكان الحنكي يواصل القراءة وكان أكثر مقروءاته الشعر الوطني، لأنه كان يحفظ بسرعة وينسى بسرعة.

وكانت فكرة المكتبة البيتية غير ممكنة لمثله، لأنه كان لا يملك بيتاً وإنما كان مع زملائه من الطلاب ثم مع إخوته في السلاح، إلا أنه كان يختلس أوقاتاً يتصل فيها بمجالس الثقافة والمتقنين. وكان لا يذاكر ولا يبدو مطلعاً إلا قبل استشهاده بشهور حتى قال عنه رفيقه المحبشي: إما أن الحنكي عميق لا يقول شيئاً أو أنه غبي ليس عنده ما يقول.

لأنه كان صموتاً غير متجهم، فكان ببشاشته جميل الحضور وبصمته قوي الملاحظة.

* * *

ولما اتقد الإرهاب الثوري شكل الحنكي اتصالاً واسعاً بسائر القطاعات ليستطلع هموم الناس، فتجلى أن التخمر الوطني بلغ درجة الانفجار، وكانت حساسية المرحلة تُبدي عن طواياها كثيراً من الأسرار إذ سقط التحفظ بين الأفراد والجماعات وباح

كل بما عنده أو ببعض ما عنده غير أن صمت الحنكي صان السر الهام وهو التحرك الثوري.

فلم تشاهده جماهير صنعاء صبيحة ٢٦ سبتمبر إلا وهو محترق في تلك الدبابة الشهيرة التي كانت طريقاً إلى الثورة وطريق الثلاثة الأبطال إلى رحاب الله.

لقد كان الحنكي من الجنود المجهولين، فلم يكن يحمل رتبة، وقلماً أشار إليه كاتب على كثرة ما تحدثت الكتابات عن زميليه المحبشي والشراعي، على حين ظل الحنكي مطوي التاريخ، لأنه جندي ولأنه قائد دبابة، مع أن العنصر الإنساني المحرك أعلى أهمية من الآلات المتحركة، لذلك كان الحنكي من الطليعة الأولى في قافلة الشهداء.

(٤)

علي عبدالمغني

كانت علامة الاستتارة عند الأربعينين تتخلص في ثلاث مزاياء....

الأولى.. الجمع بين التدين والتيقظ للأحداث. وكان يقال في ذلك الحين أن الغفلة من لوازم الصالحين، فخالف الأربعينيون هذا المفهوم فأخذوا بالصلاح وتجاوزوا غفلة الصالحين. وهذه مزيتهم الأولى.

المزية الثانية.. محاولة اجتياز العادات كمضغ القات وإقامة الحفلات المكلفة في الأعراس والموت.

المزية الثالثة.. تدوين كل ما سمعوا من الأخبار والأشعار والخطب والمأثورات، فكان لكل مستنير كتاب يسمى السفينة يجمع فيه كل مأثور ومستحسن من الأقاويل الشعرية والخطب والأحاديث إلى جانب مفكرة يومية يقيد فيها الرجل أعماله ومواعيده.

كانت هذه الثلاث مزاياء مستنيري الأربعينيات. وكان بعضها موضع القدوة وكان بعضها مغلوباً بجبروت التقاليد أو بقوة الاعتیاد. وفي الخمسينيات امتدت هذه التقاليد في شكل آخر وبالأخص في الخمس السنوات الأخيرة من الخمسينيات، إذ لم

يكتف طلاب الثانوية أو التحضيرية بتجاوز عادة مضغ القات وإنما أوجدوا البديل، فخصصوا أوقات القات للألعاب الرياضية وكان حائط الثانوية ملعباً معروفاً يشغل الطلاب ويجتذب المتفرجين، وبذا كانت تلك التسلية والرياضة بديلاً عن القات.

وبهذا تميز شباب تلك الفترة بميزات أربع....

الأولى.. وجود بديل عن مضغ القات والتدخين.

الثانية.. سعة التنقف بما وقع في المكتبات والأيدي من الكتب والمجلات والصحف.

الثالثة.. الشعور بالنفس والثقة بها.

الرابعة.. مخالطة المثقفين ودعواتهم لإقامة محاضرات أو ندوات مسائية.

فكانت تقام ثلاث أمسيات في الأسبوع لمحاضرين وشعراء، أما في سائر الليالي فقد كان طلاب الثانوية والتحضيرية يشغلون الأسمار بالتمرين على الخطابات وعلى الإلقاء.

وتسببت هذه المزايا الحسنة في إيجاد ما يسمى بالمرح الطلابي وذلك بمعونة بعض الأساتذة الذين كانوا يتناولون من التاريخ مواد المسرحيات الطلابية من أمثال مسرحية (فتح الأندلس) ومسرحية (الحروب الصليبية) ومسرحية (تحرير فلسطين) ومسرحية (فتح القادسية) ومسرحية (اليرموك).

وبهذا شكل طلاب الثانوية والتحضيرية نواة المسرح في آخر الخمسينيات.

وكان علي عبدالمغني بطل هذه الحلقة أهم أبطال التحرك في تغذية هذه الأعمال وتنفيذها، وكان يتقمص البطل الرئيسي في أغلب المسرحيات، إذ لعب بطولة طارق بن زياد في فتح الأندلس، كما لعب محمد الشهاري بطولة رستم في معركة القادسية، ولعب علي عبدالمغني بطولة صلاح الدين في تحرير القدس.

وكان هذا المسرح إلى جانب الألعاب الرياضية أهم حركة ثقافية أو أجد تحرك في الخمسينيات. ويرد البعض كل الفضل في المسرح الطلابي إلى علي عبدالمغني الذي كان يعمل في الخفاء والعلنية لإيجاد حركة طلابية، لفتت إليها الانتباه.

وكان علي عبدالمغني قوي العلاقة بالمستثمرين من الجيل الماضي وعلى ارتباط وثيق بشباب كل المدارس والدوائر، حتى أهلتهم هذه الحركات جسدياً للالتحاق بالكلية الحربية عام ١٩٥٨م. فإلى هناك...

* * *

تلاقى في الكلية الحربية مزيج من الشباب المتفاوت طبقياً وتعليمياً وشعبيّاً، إذ التحق بالكلية شباب دَرَعَمِيُون وثانويون وتحضيريون، وكانت هناك تساؤلات عن صلاحية الدرعميين وهم حملة عمائم بالكلية الحربية، فرأى البعض أن الدرعميين

وهم طلاب دار العلوم، لا يليقون بالكلية الحربية، غير أن
الدرعميين تابعوا طلبهم فالتحق منهم عدد جيد من أمثال
عبدالوهاب الشامي، ناجي الأشول، علي محمد الشامي، أحمد
علي الوشلي، عباس الموشكي، مطهر السراجي، وعبدالكريم
الحوري.

وبهذا أضيف الدرعميون إلى الثانويين والتحضيريين الذين
شكلوا غالبية طلاب الكلية الحربية من أمثال بطلنا علي
عبدالمغني، وعلي الجانفي، وعبدالله الخولاني.

أما التحضيريون فالتحق منهم عدد أكبر من الدرعميين من
أمثال أحمد المتوكل، يحيى المتوكل، حسين الزين، أحمد
الناصر، علي قاسم المؤيد، ويحيى جحاف.

وكان الكل مجمعين على التغيير السياسي وعلى التحرك
الوطني. وكان علي عبدالمغني موضع تقدير الكل من طلاب
الحربية ومن خارجها.

* * *

قضى أولئك الشباب أربع سنوات في الكلية الحربية، كما
تجاوزوا قبل الالتحاق بالكلية عادة مجالس القات، تجاوزوا في
إبان الكلية التقاليد العسكرية التي كانت تفرض عليهم عدم
الاتصال بالمدنيين، فكانوا يخترقون هذا التقليد ويتصلون
بزملائهم في الثانوية وغيرها من الدوائر أصيل كل خميس وكل
يوم جمعة وفي سائر العطلات لأنهم أرادوا أن يظلوا على صلة

بالجنود التي أغصنوا منها، وكان هذا الاتصال بسائر القطاعات الشعبية يخلطهم بالشعب ويجعلهم أبعد رؤية إلى إرادة الشعب وطموحه، وكانت الثورات العسكرية يومذاك تدوي ملء الآفاق.

إذ تلاحقت أمواج الثورات المسلحة على امتداد الفترة، فبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م في مصر تفجرت الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي عام ١٩٥٤م أي بعد ثورة مصر بعامين، وظلت متقدمة حتى التحرير عام ١٩٦١م.

كما اشتعلت ثورة تموز في العراق عام ١٩٥٨م أي بعد أربعة أعوام من بداية ثورة الجزائر. وكانت تلك الفترة فترة تصاعد الانتقاد الشعبي من مظاهرات طلابية وانتفاضات شعبية ضد الاستعمار وحركات تحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والوسطى، وكان لهذه الأحداث وقابليتها في الداخل، أعماق الأثر في نفوس النابهين من طلاب الكلية الحربية كبطلنا علي عبدالمغني وأمثاله من ذوي الحساسية والثقافة.

وفي ليلة السادس والعشرين من سبتمبر تألفت تلك الأسماء تحت جو الثورة وتحت أضوائها البهيجة.

* * *

أعلنت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر أنها ثورة شعبية وأن الجيش سيعود إلى ثكناته ويسلم الحكم إلى الساسة المدنيين، وكان هذا الإعلان صادقاً كما كان مهتدياً بالثورة الناصرية التي أعلنت نفس المبدأ قبل عشر سنين من ثورة سبتمبر.

وبعد أن أعلنت الجمهورية وتشكلت دولتها وحكومتها ومجالسها القضائية والقبلية حدث ما يشبه الصراع على السلطة بين من كانوا يسمون الضباط القدماء والضباط الأحداث.

وفي بداية هذا الصراع امتد التدخل الاستعماري من الشطر الجنوبي، فشن هجمات متلاحقة على حريب وما حولها، ف شعر علي عبدالمغني بالأهمية التي تسبق السلطة وتقتلع الصراع على السلطة فاتجه مع زميليه الشامي والعمرى إلى الجوف ضاربين المثل في البطولة وتناسي الطموح الذاتي إلى ما هو أهم وهو الدفاع عن وطن الثورة.

وفي مطلع الأسبوع الثاني من الثورة وقف علي عبدالمغني وزملاؤه في معركة غير متكافئة مع الهجمات الموجهة من الاستعمار الانجليزي، وفي تلك المعركة سقط علي عبدالمغني شهيداً، كما جرح زميله الشامي والعمرى.

وأحس الثوار أخطر نكسة باستشهاد بطل مهم كان له أشرف الأدوار وأنفع التحرك طلابياً وعسكرياً وتخطيطاً ورؤية سياسية، غير أن استشهاد علي عبدالمغني في موقع القتال برهن على بطولة اليمين وعلى قدرة رجاله على النصر، لأن علي عبدالمغني لم يقاتل كالقياديين من وراء المكتب وإنما قاتل كالجنود في ميدان الاقتتال وكان دمه أقدس شهادة على وطنيته وثورته، لأنه أثر افتداء الوطن فانتقل من مكان القائد إلى مكان الجندي الشجاع ومن موقع الجندي الباسل إلى رحاب الله.

(٥)

قاسم غالب أحمد

من مستهل الخمسينيات إلى ثورة سبتمبر ١٩٦٢م تجددت مفاهيم وطنية كانت تتبرعم في الأربعينيات، إذ كان الاستعمار يسمي الشطر الجنوبي الجنوب العربي ويسمي الشمال اليمن. وكانت بعض التنظيمات في الجنوب تقبل اصطلاح الاستعمار وتجاري تقسيمه.

وكان يقصد الاستعمار بوضع اسمين لليمن تكريس التجزئة. لهذا نشطت الحركة الوطنية في الشطر الجنوبي متبنية تحرير الشطر الجنوبي من الاستعمار والشطر الشمالي من الاستبداد.

وتلاقى المستنيريون من أبناء الشطرين على واحدة اليمن وواحدة العمل من أجله. وكان قاسم غالب أحمد من طليعة أولئك المستنيرين، إذ كان يناضل الاستبداد في الشمال والاستعمار في الجنوب.

وكان يرى تقدم الوطن رهيناً بالمزيد من تعليمه، فكان يدرّس في يومه في أكثر من مدرسة ابتدائية بأدنى أجر. كما كان يدرس اللغة العربية في أكثر من مسجد وكان ذلك التعليم أحد الأسلحة النضالية ضد الاستعمار.

لهذا كان الاستعمار يحرك أذنا به لطرء من كان يسميهم باليمنيين، أي أبناء الشمال. لهذا أراد قاسم غالب انتعاش التعليم في الشطرين وانتشار مطبوعات كل شطر في الشطر الثاني، وأراد تقوية اللغة العربية وآدابها لكي تقاوم ثقافة المحتلين وأفلامهم التجارية.

واشتهر قاسم غالب بتعدد الأعمال التدريسية والصحفية والدينية فتبنى بناء كلية بلقيس في آخر الخمسينيات، وظل حتى انفتحت تلك الكلية، وكان أحد أساتذتها الذين تم جمعهم من أبناء الشطر الشمالي والشطء الجنوبي. وكان قاسم غالب في هذا المنحى يقصد تهيئة الوطن تعليمياً لكي يتصدى للاحتلال والاستبداد معاً.

وكان من رأيه أن بقاء الاستعمار بسبب بقاء الأمية وبسبب ضعف الثقافة في الشطرين، فكان يزاول أصعب المهمات، طبع المناشير ضد الإمامة في الشمال ودعا إلى النضال المسلح في الشطر الجنوبي، وتسهيل مهمة الطلاب الفارين من الشمال للدراسة في الخارج.

فكان يقوم باستقبال الوافدين من الشمال ويعمل على وصولهم إلى معاهد القاهرة وبغداد ودمشق، وكان يؤدي هذه المهمة كجزء من رسالته التعليمية فهو في هذا المنحى يشبه الشيخ محمد عبده الذي رأى التعليم أولاً والسياسة ثانياً، لأن المواطن المتعلم يحسن اختيار الحكومة التي تحكمه والوضع السياسي الذي يضمن الحرية والديمقراطية وتكافؤ الفرص بين المواطنين.

وكان يشارك قاسم غالب موكب كبير من أبناء الشطرين من منتصف الخمسينيات إلى قيام ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢م.

* * *

بعد قيام ثورة سبتمبر وصل الأستاذ قاسم غالب من عدن إلى صنعاء في جملة أفواج من أبناء الشطرين، فمنهم من جاء متطوعاً للقتال ومنهم من جاء متطوعاً للتعليم، ومنهم من جاء ليضع خبرته بين يدي الثورة.

وكان قاسم غالب شهيراً بفهم الأساليب التربوية وبالقدرة على جمع التبرعات لبناء المدارس وبالتطوع للتدريس في أي مدرسة بغض النظر عن رقيها أو تدنيها.

وقد رأى نجاح مسعاه في افتتاح كلية بلقيس بعدن، وعندما تولى وزارة التربية عامي ١٩٦٥م، ١٩٦٦م تكونت في رأسه فكرة بناء جامعة صنعاء بنفس الطريقة التي بنيت بها كلية بلقيس في عدن، فنادى المتبرعين في الداخل والخارج لبناء جامعة صنعاء واتصل بالأنظمة العربية للتبرع بالأساتذة، لأن الوضع الاقتصادي كان مرهقاً بالحروب الدفاعية والبناء الضروري.

واستطاع قاسم غالب خلال سنة أن يجمع التبرعات إلى البنك، ولما قام انقلاب خمسة نوفمبر ونزح قاسم غالب من اليمن إلى القاهرة كانت كل الأموال التي جمعها لبناء جامعة صنعاء مرصودة في البنك اليمني للإنشاء والتعمير.. على عكس بعض

وزراء يومذاك الذين كانوا يجعلون الأرصدة بأسمائهم الشخصية.

وبهذا تميز قاسم غالب عن زملائه يومذاك لأنه كان أكبر من أن يستغل منصبه. وقد لاحظ المواطنون تألق عقته في كل منصب رغم اقتداره على الاختلاس والمغالطة، فقد عاش وهو وزير متنقلاً في بيوت الإيجار من قيام الثورة إلى رحيله عن صنعاء عام ١٩٦٧م.

وعندما رحل عن اليمن ظل في خدمتها، فحقق عدداً كبيراً من الكتب اليمنية من أمثال (السيال الجرار) للشوكاني ومن أمثال (بلوغ المرام) للعرشي المؤرخ، ومن أمثال (تاريخ عدن وحضرموت) لابن مخرمة ومن أمثال (تاريخ البحرية اليمنية) لبافقيه.

وكان يجهد في تحقيق هذه الكتب وهو يسكن غرفة سطحية تناسب مرتب منفي تفانى في خدمة موطنه وأراد أن يواصل هذا التفاني رغم ما كان يكابده في الغربة من ضيق العيش. في حين كان أمثاله يهربون أموالهم إلى البنوك الأجنبية، أما هو فارتضى صحبة الفقر ومواصلة النضال في أي موقع كان، إما موقع المسؤولية وإما موقع المواطنة.

بهذا أصبح قاسم غالب أحد أرقى النماذج الثورية، لأنه ثار على نفسه وعلى المستبدين والاستعماريين، فلم يقع تحت سلطان الإغراء، وإنما انتصر على نفسه فحقق النصر على الجهل والأمية وتدني التعليم.

لهذا لم يمت مشروعه الذي خطط له من سنة ١٩٦٦م وهو بناء جامعة صنعاء، فانفتحت بعد رحيله عن صنعاء بثلاثة أعوام وكان مؤسس فكرة بنائها ومشروع افتتاحها حتى ولو بنيت بطرق أخرى فإنه صاحب السبق الفكري إلى هذا المشروع.

كما أنه صاحب سبق في تهيئة المواطن لتحمل المسؤولية بشرف وإدارة الأعمال بكفاءة، لأن العمل العظيم يصبح قدوة لمجيئه من عظيم يبتغي عظمة الكل.

* * *

من بداية عام ١٩٧٠م وقع قاسم غالب أحمد تحت وطأة الأمراض العنيفة، ولم يجد من المال ما يمكنه من الانتقال إلى مستشفى أوروبي فتحمل الأسقام والغربة مدة عامين حتى أجاب نداء ربه سنة ١٩٧٢م تاركاً أعطر ذكر وأنصع قدوة، لأنه مات فقيراً رغم اقتداره على الكسب والثراء. وعاش فقيراً لأنه يريد ثروة الوطن بالرجال لأنهم الذين يصنعون الرخاء الثقافي والرغد المادي.. إلى حد أن قاسم غالب لم يستطع أن يطبع مؤلفاته الشعرية أو الكتابية.. ولا نزال إلى اليوم ننتظر الخيرين الذين يبعثون آثار هذا النموذج الراقى من الثوار الأنقياء.. قاسم غالب أحمد.

(٦)

صالح الرحبي

ليس قيام الثورة مجرد انتهاء، وإنما هو ابتداء أشق، لأن محو وضع وإقامة وضع يتطلب خبرة قوية وجهوداً أقوى على أداء الخبرة.

وقد لاحظنا ما عانت الشعوب بعد الاستقلال، لأنها بدأت من نهاية عهد المحتل، وهذه البدايات محفوفة بالأخطار، لأن المنتهي يترك كل بذوره وجذوره في تربة العهد الذي يليه، فيخوض الوطن ميدانين، ميدان إنهاء ما تبقى وميدان تأسيس ما سوف يقوم، ذلك لأن العهود الجديدة تأتي بمشاكل جديدة موصولة بالجذور البائدة وممتدة إلى الأيام الآتية.

وأولى المشاكل التي نجمت بعد ثورة سبتمبر هي الاختلافات الطبيعية بين الثوار، غير أن الاختلافات تشكل خطورةً إذا كان هناك عدوان خارجي كالذي حدث في بلادنا بعد ثورة سبتمبر.

وكانت أولى بؤر الخلاف في أكثر المواطن حساسية، إذ تعالت النبرات بين ما يسمى بالضباط القدماء والضباط الجدد. ومن أكثر ثورية وأيهما أليق باسم الثورة والثائر؟!!

كان الضباط الجدد يرون أنفسهم العاملين المباشرين في تحريك الثورة وتنفيذها، وكان الضباط القدماء يرون أنفسهم أسبق إلى

الحركة الوطنية، لأن أكثرهم وقع في سجن ١٩٤٨م، وكابد سجن نافع سنوات. بيد أن الضباط الجدد لم يروا هناك صلة بين حركة ١٩٤٨م وبين ثورة سبتمبر، لاختلاف الطرفين والحدثين.

* * *

كان صالح الرحبي من الأنقياء إلى أبعد مدى، فكان يستنكر أن في الدنيا كذباً أو غشاً أو خيانة للأوطان حتى أن رواية كذبة من إنسان معتبر تُحدث عنده دهشة صاعقة، فيرد على محدثه.. هذا لا يتصور.. هذا غير ممكن.

وبفعل التجربة رأى صحة ما يقال وكذب ما قيل، لأنه عرف من ثقافة ذلك الحين عبارة (كل شيء ممكن) (لهذا جائز) لهذا لم يعد يستغرب أي ظاهرة، وإنما حاول أن يبحث حقيقة كل ظاهرة وسبب كل حدث صغيراً كان أم كبيراً.

وكان الرحبي محبوباً.. فقل من يكتم عنه سرّاً. بهذا عَرَفَ الشرائع الاجتماعية في الخمسينيات وهوياتها السياسية، لأنه كان مأمون الجانب عند كل الشرائع مرجو الخير والعون عند كل صديق وزميل.

* * *

عندما تنازعت التنظيمات في الخمسينيات التحق صالح الرحبي بأحد التنظيمات القومية سنة ١٩٥٩م، ولم يشكل انتماءه إلى التنظيم كراهية لأحد سواءً أكان من نزوعه أو من خلاف مَنَزَعه، إلا أنه كان لتنظيمه أكبر عون، إذ كان بيته في القاع

مقر اجتماع رفاقه، كما كان تحركه إلى سائر المناطق يؤدي خدمة لتنظيمه.

ولم يكن انتماؤه سبب قطيعة بينه وبين الآخرين، بل تعاون مع الثوار من كل انتماء أو غير منتمين.

فبعد قيام اللقية وزميليه بإطلاق النار على الإمام أحمد سنة ١٩٦١م في مستشفى الحديدة، جازفت الاعتقالات بأدنى الشبهات، وكان من الذين وقعوا في الاعتقال الزعيم حمود الجانفي.

فأحدث اعتقاله صدمةً عند جمهرة المواطنين وعند الضباط الثوار بصفة خاصة، لأنهم كانوا يُعدّون الجانفي قائداً للثوار فتزايد التساؤل: هل سبب اعتقال الجانفي يرجع إلى معرفة نوايا الثوار أم أنها مجرد شبهة.

كان هناك احتمالان، ولما تخفف السجن على الجانفي وحصل على الإذن بزيارة بيته يوماً في الأسبوع، قام صالح الرحبي ومحمد عبدالله أبو لحوم بالتعاون على تهريب الجانفي إلى عدن، وشاعت للرحبي أحداث تهريب الجانفي في صنعاء، وكانت تلك الفترة تعاني من التراخي، إذ شاعت فيها سرقات صناديق الحكومة وفرار السجناء، فقد أمكن فرار ابن مُعَيَّلِي من سجن الرادع في منتصف النهار وتمكن محمد عبدالله أبو لحوم من تهريب محمد عبدالله الفسيل وحسن السحولي وأحمد الشامي وأحمد القبلة من سجن حجة.

وكان تهريب الجانفي أخطر حادث في مطلع الستينيات. من ذلك تبدى الرحبي شخصاً مقنعاً، عند الضباط القدماء وعند الضباط الشباب لما بذل من الجهود ومن التعاون مع كل الثوار بغض النظر عن الانتماء السياسي.

* * *

لأن الثورة، ابتداء، بناء يتطلب كل القوى والاختبارات وبالأخص بعدما تكالبت المطامع الاستعمارية على اليمن الذي رفع راية الثورة، وكان لثورة اليمن خطر عالمي لكون الاستعمار الانجليزي جاثماً على صدر الشطر الجنوبي من اليمن، ولأن منابع الطاقة تتأخم شمال اليمن وبعض جنوبه.

لهذا اشتدت الحملات الاستعمارية على وطن الثورة اليمنية فكان في هذا الشر خير كثير، لأن وجود العدو الأجنبي ذوّب الخلافات بين الضباط القدماء والجدد.

فاتحدوا أمام العدو المتعدد المصالح الموحد الغايات. وكانت يد الاستعمار تمتد مستغلّة حياة الإمام المخلوع وحياة الأمراء الذين كانوا يقطنون شتى عواصم العالم.

وكان أهم حدث في أسبوع الثورة هو ذلك الحدث الذي كان صالح الرحبي بطله وشهيداً، فبعد قيام الثورة بأسبوع حدثت تغيرات وتنقلات في المعسكرات لمواجهة العدوان الخارجي وعندما أراد الضباط الثوار نقل معسكر قصر السلاح إلى العرضي امتنع ذلك المعسكر، فاشتّم الرحبي روائح المؤامرة،

وصمم على نقل تلك القطعة التي عُرفت بإخلاصها للمقام جملة وللحسن بصفة خاصة، وكان ذلك المعسكر لا يحمل من الأسلحة إلاّ البنادق، إلاّ أنه يقدر أن يمنع الضباط الثوار من الوصول إلى الأسلحة الثقيلة التي استدعاها الموقف.

ولعل الحكمة تغيبت في ذلك اليوم فاشتبك معسكر القصر مع بعض الثوار على رأسهم الرحبي، وكان صالح الرحبي مصرّاً على احتلال القصر وإخراج أولئك الجنود، فلجأ إلى النار من أول مرة فقتل وجرح ثم لاقى مقتله في ذلك اليوم وهو اليوم السابع لشرارة الثورة.

توالى عدة تفاسير عن عصيان معسكر القصر، فقال البعض أن السبب وصول رسالة من البدر المخلوع، وقال البعض أن ذلك المعسكر كان من جملة الثوار وإنما استفزه الذين أرادوا نقله بدون سبب واضح.

وقال البعض أن ذلك المعسكر شاهد الطائفة التي كانت تُقل الزبيري والبيضاني من القاهرة فظنّها طائفة الحسن، فلم يثق بالثورة مع وصول الحسن. غير أن هذا التفسير بعيد عن المعقول، فقد بدأ تحرك الطائرات في جو صنعاء من اليوم الثاني لقيام الثورة، ولا يمكن أن يتصور ذلك المعسكر وصول الحسن بتلك البساطة إلى عاصمة أقامت نظاماً مختلفاً وقامت بثورة تغييرية، من كل الوجوه!!

المهم أن ذلك البطل صالح الرحبي سقط ضحية تلك الحادثة العارضة، على حين كانت الثورة تذخره لمهام أعظم.

بهذا الحادث المؤسف الذي سببه سوء الفهم أو سوء التفاهم سقط رجال شجعان من معسكر القصر وسقط صالح الرحبي أحد ضباط الثورة البارزين في وقت الاحتياج إليه وإلى أمثاله من الأقوياء المضحين ومن الرجال الموثوقين عند جيلين من الضباط، لأن صالح الرحبي الشهيد كان ثورياً حتى على نفسه، إذ مات وهو لا يملك شيئاً، لأنه رأى الثورة بالشعب وللشعب وليس للنوار إلاّ عبء المسؤولية لكي ينعم الشعب بالديمقراطية والرخاء وبالشعور الإنساني وبالسيادة على الأرض.

(٧)

محمد عبدالكريم الصباحي

ما خلت فترة تاريخية، من التحرك الاجتماعي والسياسي، إلا أن كل الحركات مختلفة الوجوه والاتجاهات على أي نحو من الأنحاء.. كانت تسمى الحركات التاريخية الخروج على الظالم، طلاب الحق، أصحاب الأولوية.. واتخذت هذه الحركات أسماءها من مضمونها أو من تلقيب الذين خرجوا عليهم أو من تلقيب الحركات المناوئة، فلم يسم الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية معاً بالخوارج من أيام خروجهم الأول، وإنما لقبهم الإمام علي لخروجهم عليه بعد التحكيم، فصار هذا اللقب الاسم التاريخي للخوارج، الذين امتدت حركتهم نحو ثلاثمائة عام ولا تزال لهم عضوية مختلفة عنهم.. كذلك طلاب الحق فإنهم يشاركون الخوارج في الخروج، ولكنهم يحملون صفات أخرى وصفوا بها أنفسهم من أمثال عبدالله بن يحيى الكندي اليمني، فقد لقب نفسه طالب الحق وخرج على الأمويين في اليمن وامتد تحركه إلى الحجاز.. وكان هذا الرجل فرعاً من الخوارج ولكنه كان مختلف المذهب فوسم نفسه بطالب الحق، لكي يختلف عن اسم طائفته ولكي يفهم المجتمع عنه أنه مختلف لا يريد إلا الحق وليس مذهباً معيناً.. بعد عبدالله بن يحيى تسمى كثير من القادة بطلاب الحق، أما الذين يتسمون بالخارجين على الظلمة فكانوا أئمة يخرجون على أئمة في اليمن، بمقتضى مذهب زيد بن علي..

وكلهم يرون أنفسهم أصحاب الأولوية، فقد كانت كل الحركات الماضية في العالم الإسلامي تحمل صفات دينية وتشتت تسميتها من معانٍ دينية، ورغم تطور هذه الحركات، فإنها لم تشكل تنظيماً خاصاً إلا في القرن الـ٢٠ ولم يحدث مثل هذا في اليمن إلا في منتصف الأربعينيات، حين تشكل حزب الأحرار، وكان يعرف في بادئ أمره بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالأحرار، ثم بالجمعية اليمنية الكبرى عام ١٩٤٧م.. بيد أن المناشير التي كان يبثها أعوان الأحرار في الشمال كانت تُوقَّع باسم حزب الأحرار على خلاف التسمية التي على مكتب الجمعية اليمنية الكبرى بعدن.

وقد كانت الحركة في الشمال متعددة المنابر، كان هناك حركة مشيخية وحركة تجارية، وحركة علماء، وحركة شباب، كما صنفها الدكتور أحمد قائد الصايدي في كتابه **(المعارضة اليمنية)**.. والذي يهْمُّ هنا هو تحرك الشباب الأربعيني الذي التقى فيه شبانٌ من مختلف المناطق والمدارس والأعمال، إذ تجاور فيه الممرض من وزارة الصحة والطالب من دار العلوم، والموظف في دائرة السلك، وكان أكثر هؤلاء حماسةً محمد عبدالكريم الصباحي الذي كان على رأس خلية في مدينة إب.

* * *

ربما كانت للشباب اتجاهات مغايرة لاتجاه الجمعية اليمنية الكبرى ومغايرة لوجهة العلماء في صنعاء والطويلة والسر.

فقد تبدى الشباب متحمسين للوحدة العربية من ناحية، وللوحدة الإسلامية من ناحية أخرى، بدون تمييز بين زعماء الدعوتين، وبين اختلاف الدعاة.. إذ كان زعماء الدعوة الإسلامية يرون بطلان الدعوة القومية، كما كان القوميون يرون أن الدعوة الإسلامية تشكل امتداداً للعهد العثماني.. ولعل شباب الأربعينيات في اليمن كانوا متأثرين بالدعوتين معاً باعتبار أن كليهما ضد الاستبداد المتوكلي، وكان محمد عبدالكريم الصباحي من أقدر الشباب على الخطابة وعلى التحرك السريع إلى كل منطقة فيها خلية شبابية، أو ممكن أن تكون فيها خلية شبابية.. وعندما وقع انقلاب شباط عام ١٩٤٨م وقع كثير من أولئك الشباب في قبضة الإمام أحمد الذي انتصر لمقتل والده وقضى على الانقلابيين، ونكّل بأتباعهم....

* * *

تبدى اختلاف السجون كفارق بين انقلابي أساسي، وبين مأخوذ بالموجة التي اجتاحت صنعاء، بل إن أمكنة السجون دلت على التفاوت في وزن أولئك الرجال، فمنهم من سُجن بنافع في حجة، ومنهم من كان سجنهم أخف فسُجن في المنصورة، ومنهم من آواه حبس القلعة في صنعاء، ومنهم من استضافه سجن الرادع بصنعاء.. أيضاً إلى جانب السجون في كل مركز، فتبدى أن سجناء نافع أخطر لأن حسابهم أعلى وسجناء المنصورة أهون سجناء لأن جرمهم عند السجان أهون، كذلك سجن القلعة بصنعاء فقد كان أعتى من سجن الرادع.. لقد دلَّ اختلاف السجون على

اختلاف العقوبات وعلى تفاوت الذين لحق بهم العقاب.. وإذا كان هذا الاختلاف غير تحديدي إلا أنه تقريبي.

وقد كان نصيب بطلنا محمد عبدالكريم الصباحي سجن القلعة أعتى سجن في العاصمة ولكن دون سجن حجة.. فكان الصباحي أخطر الشباب ودون خطورة الزعماء الذين لا قوا عقوبة الإعدام.

كان محمد عبدالكريم الصباحي في سجن القلعة متهماً بالتدرب على الفدائية أو بالمشاركة فيها، لأنه جاء سجيناً بين مجموعة من الفدائيين الذين جاءوا من عدن لحراسة إمام شباط، فظل الصباحي في القلعة غير منتظر للموت بالسيف وغير آيس من التحرك الشعبي، فجدد نفسه لتعليم الرهائن أو رفع مستوى ذلك التعليم.. فاشتهر في القلعة باسم الأستاذ، لأنه كرس وقته لتعليم الأميين وتثقيف المتعلمين.. وفي عام ١٩٥٠م طلب انتقاله إلى المستشفى بصنعاء للعلاج، فأجيب طلبه تخلصاً من اتصاله بأبناء الشيوخ الذين كانوا رهائن في القلعة، وفي المستشفى لاقى زملاءه الذين نجوا من السجن أو دخلوه شهوراً ثم خرجوا، ثم شكل صلات متعددة مع مرضى المستشفى وزوارهم، وكان في كل صلاته يثور الذين يلاقيهم على الوضع الإمامي ويقص عليهم التغيرات في العالم، وكان دائم القراءة لقصيدته التي ردّها بها على قصيدة الإمام أحمد في رثاء أبيه.

كان الصباحي في المستشفى لا يخلو من تحرك وفي الخارج لا يتوقف له تحرك فتردد بين السجن والمستشفى من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٥٣م.

ولما تحرر من سجنه بصنعاء تنقل بين صنعاء وإب وعدن، وكان يتميز بحسن التخلص من المآزق والقدرة على الهرب عند طلبه.. وفي عام 1955م ظهر في تعز غير مشارك في انقلاب عبدالله ضد أخيه وغير مناوئ لذلك الانقلاب علنياً، وإنما كان يستطلع الحركة إلى أين تصل، فاختلف عن الذين أطلقوا من سجناء ١٩٤٨م إذ انقسموا إلى وجهتين..

أيّد عبدالرحمن الإيراني ومحمد حسين عبدالقادر، وعبدالله الشماحي انقلاب عبدالله.. ووصف الشماحي ذلك الانقلاب بأنه ديمقراطي.. كما أيّد أحمد الشامي ومحمد أحمد الشامي، البدر ضدّ عمه عبدالله.. وتلاعب الأستاذ نعمان على الفريقين فابتعثه عبدالله لإقناع البدر في الحديدة بالانقلاب فانضم إلى البدر، وعند معرفة الصباحي بانقلاب نعمان على الانقلاب أخذ يتساءل عن موقف الحركة وموقف أتباعها، فقد سبق نعمان إلى الحديدة ليستطلع حركة البدر غير منضم إليه، كما لم ينضم إلى عمه من قبل، ولعل الصباحي كان يرى في ذلك التحرك إجهاضاً للثورة الحقيقية.

* * *

ظل الصباحي على أقوى صلة ب جماهير الشعب وبالأخص الشباب المثقف وتلاميذ المدارس، وكان غير مرتبط بعمل

وظيفي وإنما كانت وظيفته ذاتية، يتطلع الأحوال ويراقب مجرى التغيرات.

وفي عام ١٩٥٦م تعين رقيباً على العمال اليمنيين الذين يعملون مع الصين في شق طريق صنعاء الحديدية، فوجد بغيته لكي يوسع دائرة اتصاله بشتى الناس، ووجد الحركة العمالية مكان تحمسه وتثويره، وواصل عمله متنقلاً بين الفلاحين الذين يملكون الأرض التي تمر منها الطريق وبين العمال الذين يشقون الطريق، ولبت في هذا العمل خمس سنوات، ولم يفرغ من ذلك العمل إلا وقد تهيأ الجو لإرهاصات الثورة.

فعمل في مديرية الأشغال من عام ١٩٦١م إلى صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م.. وهناك تبدى الصباحي كعهده جذوة حماس يقود المظاهرات الجماهيرية ويستقبل المظاهرات الآتية من المناطق، وبعد شهر من قيام الثورة تقلد منصب وكيل وزارة الأشغال إلا أنه لم يستلذ القرار على مكتب مغلق.. وكانت الحرب ضد الثورة على أشدها، فانتدب محمد عبدالكريم الصباحي نفسه إلى جانب المقاتلين وكان يتوخى إقناع القبائل بالثورة أو حملهم على طرح السلاح، فقد تعود إقناع الجماهير واستمالتها، إلا أنه ندب نفسه للعمل الإقناعي بعد أن دوى الرصاص وأصبح صوته أعلى من صوت الحجة والبرهان، فلاقى مصرعه في بيت مرّان في أرحب في منتصف عام ١٩٦٣م، فتوج شوطه الطويل بذلك الاستشهاد العظيم إلى جانب جيش الثورة وفي خندق الثوار.

ولقد كان محمد الصباحي طرازاً ممتازاً من الثوار، فقد عمل رقيباً في شق طريق صنعاء- الحديدة وكان مجالاً للكسب ولم يكسب الصباحي لنفسه شيئاً، وبعد الثورة نال منصب وكيل وزارة ثم انتقل إلى موقع القتال وكان يثري في هذا المكان مرتزقة الحرب غير أن الصباحي كان أعلى من هذا فمات ولم يخلف بيتاً أو ثروة وإنما خلف قدوة حسنة وصيتاً طائر الأشرار.

(٨)

عبدالله عبدالوهاب نعمان

كما أن السياسة ليست شارعاً واحداً، فإن الثورة ليست خطأ واحداً تعزف عليه الرصاص نشيد النصر والفرح، وإنما الثورة متعددة الخطوط، عديدة المواقع، كل خط يؤازر موازيه، وكل موقع يساند مقابله، لأن الحياة كلُّ، والثورة هي كل عطايا الحياة وأجمل عطايا الأحياء، فلكي تتأزر خطوطها وتتواصل مسيرتها تتعدد المواقع الثورية، ثورة الزنود إلى جانب جمرات القلوب وثورات المحاريث والمعاول إلى جانب ثورات المعازف والأغاني والأشعار والأفكار.

ولقد ظفرت ثورة ٢٦ سبتمبر بالكثير من هذه المواقع الثورية ... تأجبت الأغنية بنار الوجدان القلبي، وعزفت الرصاص حماس الوجدان الشعبي، وأطلقت الأفكار مشاعل الأضواء لكي تتواكب ثورة الثقافة الشعبية وثورة الشعب التائق إلى كل آفاق الإبداع.

ومن جمال التوافق أن الثورة تكونت مع هذه البواكير الإبداعية من إبان تبرعمها، فقد تبارغ الشعر الثائر من الجو الإمكانية للثورة.

وكلما تنامي إمكان الثورة سمقت قامات الإبداع الفني في شكل قصيدة، في شكل مقالة صحفية، في قالب أغنية. فلم تسبق الفنون الجديدة إمكان الثورة، ولا سبق إمكانها تبازع الفنون الثائرة، فمن منتصف الخمسينيات تغيرت مفاهيم الكلمة المكتوبة والكلمة المروية والقصيدة السائرة.. وكانت الأغاني الجديدة مقصورة على جلسات الأصدقاء، كما كان أكثر الشعر الثائر يجوب المناطق محمولاً على الأوراق المخطوطة، وقلمما أفصحت مقالة منشورة عن السرّ الشعبي.

صحيح، أنها كانت تلوح بواذر شعرية وكتابية في الصحف الرسمية التي كانت تُنشر في تعز وصنعاء وعدن، وكانت هذه المنشورات القليلة تتناغم مع القصائد الآتية من الشطر الجنوبي، وبالأخص قصائد بطل هذه الحلقة عبدالله عبدالوهاب نعمان.

فقد انتشرت له في منتصف الخمسينيات قصيدة شهيرة تندد باستسلام الشعب للطغيان أو تستفز الشعب إلى مقاومة الطغيان.. ومطلع تلك القصيدة:

فرش التراب وبالحصير تأزّرا

شعبٌ بحمد الله يمشي للورا

وعلى سعة انتشار هذه القصيدة، فإنها لم تحمل اسم صاحبها حتى ادّعاها البعض لنفسه، مع أنه مجرد راوٍ من جملة رواة تلك القصيدة التي استظهرها الكثيرون لحسن موقعها في القلوب يومذاك.

وكان عبدالله عبدالوهاب يؤجج الشعر الثوري والكتابة الساخرة من عدن، لأنه صاحب صحيفة الفضول الذي انطبق اسمها على اسمه، وكان في تلك الصحيفة أميل إلى الهُزء السياسي منه إلى المباشرة، إلا أنه كان يستغل كل بادرة وكل حادثة مهما كانت عادية، فعندما سقط أمير جيش تعز من ظهر بغلته أبرز الفضول هذا العنوان.. "انقلاب عسكري في اليمن" وتحت العنوان ورد الخبر العادي كما وقع.

إلى جانب هذا كان يكتب الشعر الساخر معارضاً القصائد الشهيرة مثل معارضته قصيدة المتنبي (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) فنشر الفضول معارضتها هكذا....

على قدر كبر الحقو تأتي المحازم

وهكذا كان الفضول يسخر بسياسة تلك الفترة وبرجالها، على امتداد الخمسينيات.

* * *

كانت حياة عبدالله عبدالوهاب نعمان أشبه بقصة مأسوية من نسيج الواقع والخيال معاً، وقع الشيخ عبدالوهاب نعمان والد بطلنا في قبضة الإمام أحمد كأخطر رجال حركة ١٩٤٨م، ونَفَذَ فيه حكم الإعدام مع الطليعة الأولى من الشهداء، وكان عبدالله عبدالوهاب ابن الشهيد في طور أحلام الشباب والأمل، فكانت الصدمة أعنف ولكنه لاقى استشهاد والده بقلوب الرجال.

ففر إلى عدن متخفياً، ويقال أن الإمام قلب الدنيا بحثاً في طلبه، ولكنه نجا وظل صامتاً متوارياً مدة أربع سنوات، ثم أخذ نجمه يلوح في صحافة الشطر الجنوبي، وفي القصائد التي كانت تتراد الشطر الشمالي، وكان ظرفاء شعراء عدن يلقبون عبدالله عبدالوهاب بصقر الحجرية تشبيهاً له بصقر القريش عبدالرحمن الداخل الذي عزَّ على قبضة السفاح وعبر البحر إلى الأندلس فأقام فيها العرش الأموي وكان هذا التشبيه مقبولاً إذ نجا عبدالله عبدالوهاب نعمان من قبضة الوشاح.

إلاً أنه ظل في عدن على توجُّس من الحكم الاستعماري ومن إمكان مكيدة أحمدية.. ولما حدث انقلاب مارس عام ١٩٥٥م بتعز بدأ الإمام أحمد يتحول عن قَتْلَة أبيه وأتباعهم إلى الذين حاولوا إسقاطه هو أو قتله.. فتتنفس الأحرار الصعداء في شطري اليمن وفي المهاجر العربية والأجنبية.

وكان ذلك الظرف بداية إيمان الثورة وبداية تحول الفنون كاستجابة للتحول الاجتماعي، وتسارع التحول شعبياً وفنياً، حتى وصل المد صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر يوم إعلان انتصار الثورة ونهاية العهد الإمامي.

* * *

بعد قيام الثورة يتحول كل الناس إلى ثوار، إما بفضل العدوى وإما مجاراةً للظروف، وإما استجابة لقوة التغييرات.

كذلك حولت بطولهُ أفرادِ كل الناس إلى أبطال، فقد شهدت الساحة بعد ثورة سبتمبر انتقاد الجماهير وتأجج الشوارع، وكأنَّ كل واحد هو الذي فجر الثورة، لهذا انكشمت بعض الوجوه ذات السبق، وطففت على السطح آلاف من الوجوه الدَّعِيَّة والمَدَّعِيَّة، على حين انزوى بعض النجوم خلف الغبار في انتظار انجلاء الغبار، من أمثال عبدالله عبدالوهاب نعمان، فلم يرد اسمه بعد الثورة مع الأسماء التي رنت يومذاك، فظل كموظف متوسط في محافظة تعز، ومترددًا على صنعاء وكأن شيئاً لم يحدث كما كان ينتظره بطلنا، لأنه طوى جوانحه على الصمت وكان كل شيء قد انتهى، بما في ذلك دواعي شعره فتبدَّى بطلنا خارج دائرة الشعر والسياسة من قيام الثورة إلى ١٩٦٧م.

ولما أحرق الحصار بصنعاء وتفجرت طاقات الشعب مقاومةً واستبسلاً، تبدى عبدالله عبدالوهاب ككاتب سياسي، فتوالت تعليقاته الإذاعية على امتداد سنتي ١٩٦٧م، ١٩٦٨م، وكان المرحوم عبدالله حمران يؤدي تعليقات عبدالله عبدالوهاب أداءً يناسب جودة الكتابة وحصافة السياسة التي ترمى إليها تلك التعليقات، وكانت تلك التعليقات تذاع غير مصحوبة باسم كاتبها حتى لم يعرف من كاتبها إلا أقل الناس، لأن الكاتب لم يكن ذا أسلوب معروف من قبل تلك التعليقات.....

والمعهود عنه أنه شاعر، وكاتب صحفي، وكانت تلك التعليقات التي يكتبها عبدالله عبدالوهاب تتمتع بأدبية العبارة ووضوح الفكرة وواقعية الموضوعية، وكانت مميّزه بتعابيرها على سائر التعليقات الإذاعية والمقالات الصحفية.

فأخذ الكاتب يتكشف شيئاً فشيئاً فظهر عبدالله عبدالوهاب ككاتب سياسي مطوي على أديب. وبعد انجلاء الحصار عن صنعاء وبداية ما تسمّى بالاستقرار، أصبح عبدالله عبدالوهاب وزيراً للإعلام مدة شهور، فغلب الوزير على المعلق والشاعر والأديب، وكاد أن يبدو من سائر الوزراء الذين لا يحتاجون إلى موهبة، وكانت رياح تلك الفترة عاصفة فقلماً تعمر تشكيل وزاري مدة سنة.

فكانت وزارة بطلنا أقصر عمراً فعاد هذا بالخير على فن جديد يكنه عبدالله عبدالوهاب، فتفرغ من بداية السبعينيات للشعر الغنائي، فوجد فيه نفسه، كما وجد في شعر الأغنية الأصالة الخلاقة، فتتابعت أغنيات عبدالله عبدالوهاب من خلال صوت أيوب طارش، فتلاقى شعر جيد بصوت جيد الأداء، فتوالت عرائس الأغنيات الشعرية، وسمعنا مثل أغنية (نجم الصباح)، (مدارب السيل)، (دق القاع)، (بكر غبش)، (طاب البلس) إلى جانب أناشيد وطنية من أمثال (رددي أيتها الدنيا نشيدي) و(أرض الجنتين) ..

بهذا تألق عبدالله عبدالوهاب كشاعر غنائي متفرد كسائر الأفاضل في شعر الأغنية من أمثال عبدالرحمن الأبنودي ومجدي نجيب وأحمد رامى وعمر الحلبي وحسين حمزة.

ولعل انتقال عبدالله عبدالوهاب من القصائد الثائرة والتعليق السياسية إلى شعر الأغنية هو أعظم تحقيقاً لذاته الفنية وموضوعيته الفكرية.

وتشئ أغانيه بأنه دخل عالم حب حقيقي أو تصويري يعادل الحقيقي، فقد أبدع شعر الأغنية على أصولها، إذ لم ينفصل عن تقاليد الشعر العربي كلياً ولا تقيد بها كلياً، فاعتمد على التوقيع التعبيري لا على سنتيمترية الأوزان، من أمثال هذا المقطع..

نجم الصباح

قل للصباح

إن لاح قلبي جراح

ظلام مغلق ما عليه مفتاح.

فالمعاني عند عبدالله عبدالوهاب شائعة في الشعر العادي والعالى إلا أن صيغته جديدة غنائياً، فتفرد في فن الشعر الغنائي وكأنه فنه الخاص، لأنه في سائر شعره الثائر لم يحقق مستوى يعادل مستوى الزبييري أو جرادة، على حين حقق في الشعر الغنائي مستوى مرموقاً من حيث الكيف والكم، فأحدث ثورة غنائية بعد أن تماهى في الثورة السياسية من آخر الأربعينيات إلى أول الستينيات.

ودخل في غمار الناس من أول الستينيات إلى ١٩٦٧م، ثم انتقل إلى كتابة التعليق السياسي فأجاده. وبعد أن تحول عبدالله عبد الوهاب نعمان من وزارة الإعلام إلى مستشار، انقطع لشعر الأغنية فأحدث فيه ثورة إبداعية تواصلت أنفاسها، حتى انقطعت أنفاسه في مطلع ثمانينيات هذا القرن (العشرين) طاوياً عمره الزمني وتاركاً على ربوات التاريخ عمره الفني الذي لا يموت.

عبدالغني علي أحمد

بعد الحرب العالمية الثانية تغيرت صورة العالم كله وسياسات كل الأنظمة، بما فيها النظام في اليمن، فبدأ التفكير في إرسال البعثات الدراسية واستقدامها من الخارج، فاستوفد مدرسون من فلسطين وسوريا ومصر، وُبعث أعدادٌ من طلاب المتوسطة والابتدائيات والثانوية ودار العلوم، فُبعث نحو خمسين طالباً إلى لبنان ونحو عشرين طالباً إلى مصر.. وتلاحقت البعثات مثنى وثلاثاً وأحاديّاً، على تعاقب الخمس السنوات الأخيرة من الأربعينيات..

ومن مستهل الخمسينيات تنوعت الهجرة اليمنية إلى الخارج.. ففرّ القادرون على الفرار من دار العلوم بصنعاء ومن المدرسة الأحمدية والتحقوا بمعاهد القاهرة وبغداد ولبنان وسوريا.. وتواصلت البعثات حتى وصلت في آخر الخمسينيات إلى المئات، إلى كل الدول الأجنبية والعربية. ومن ذلك الحين تألق الأمل بالخريجين، ورتب اليمنيون في الداخل عليهم تقدم اليمن، واضعين في اعتبارهم التجربة اليابانية التي حولت ذلك الوطن التقليدي إلى بلد صناعي كأحد أقطار أوروبا.

وكان الطلاب المبعوثون متفاوتين في الوعي بتلك المسؤولية وبأمل الشعب فيهم، فوقع بعضهم في اللهو والتهاون واجتهد الكثيرون.

وفي بداية الستينيات بدأت طلائع الخريجين من كل مستوى تعود إلى أرض الوطن، وكان من أوائل الخريجين حملة الدكتوراه في الاقتصاد إثنان.. الأول عبدالرؤوف رافع، الذي مات في حادث طائرة بعد تخرجه بشهور.. والثاني بطل هذه الحلقة عبدالغني علي أحمد.

* * *

لاقى الدكتور (عبدالغني علي) نفسه في موطن مختلف عن الوطن الأوروبي الذي تعلم فيه تعليمه العالي، ولكنه لم يقنط من تحويل الاقتصاد اليمني إلى الانتعاش، فتشكلت لجنة اقتصادية من أول دكتورين عبدالغني علي وعبدالرؤوف رافع.

فأحس عبدالغني بأنه وزميله قادران على تحقيق آمال الوطن ولو للمدى البعيد، وبعد فترة أصبح عبدالغني علي وحده، نتيجة موت صديقه عبدالرؤوف رافع الذي سقطت به الطائرة مع زميله محمد عبدالله العمري، ومحمد أحمد الحجري.

وبفعل ذلك الحادث الفاجع تبدى عبدالغني علي شاعراً، إذ رثى صديقه عبدالرؤوف رافع بقصيدة جيدة دلت على شاعرية كما وَشَتْ بثقافة، وبرهنت على حزن طائر فَقَدَ إلفه.

فأصبحت اللجنة الاقتصادية مكونة من عبدالغني وحده، وبعد فترة انضاف إليه يحيى محمد الهجوة.

وعلى شحة التخرج من الاقتصاد، عاد خريجون جامعيون من عدة كليات كعلي محمد عبده في الزراعة وعبدالله الكرشمي في الهندسة المعمارية، وفي الصحة تخرج دكتور واحد في الصيدلة هو الدكتور محمد الظفري.

وكانت الستينيات إبان تخرج هؤلاء تغلي بالثورة، وفي السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م اندلعت الثورة.

* * *

دألت تجارب العالم أن أول ما تحتاج إليه الثورات الصناعية والسياسية هو جيش من الخبراء الذين تخرجوا قبل سنوات وطبقوا تعليمهم سنوات. ولم يكن أمام ثورتنا إلاّ آحاد من حملة الشهادات المتفاوتة، وهم على أحدث عهد بالتخرج. لهذا أحس الخريجون عظمة مسؤوليتهم أمام التغيرات التي استهل عهدُها باستهلال الثورة.

وكان عبدالغني علي قوي الحس بالوطن، لأن الوطن متخلف وتقدمه مسؤولية بنيه، كما قال عبدالغني في إحدى مقالاته "إذا كان الوطن متقدماً فهو في غنى عنا. أما مادام على هذه الحال فهو أحوج ما يكون إلينا، يتبجح البعض بتقدمه وبتخلف الشعب فإذا كان هذا متقدماً فليقطع شبراً من طريق التقدم الشعبي".

وكانت هذه الملاحظة من عبدالغني مصوبةً إلى الخريجين الذين بدأوا يثرثرون في المجالس القات وكأنهم لم يتخرجوا، وكأن الشعب لم يبذل من لقمة عيشه نفقات تعليمهم.

وكان بعض الخريجين يجولون في الشوارع الجديدة سادين أنوفهم من غبار صنعاء، وغاضين أبصارهم عما كانوا يسمونها المناظر المؤذية، لهذا كان عبدالغني أسرع إلى رشق المتقززين من رؤية الوطن الذي عوّل على بنيه المتعلمين..

ظل عبدالغني علي عاكفاً على دراسة الأحوال اليمينية ومقارنتها بأشباهها، باحثاً عن الوسائل الأجدى لدفع عجلة الحياة الاقتصادية والثقافية، وشاركه الكثير هذا الاهتمام، غير أن الأنظمة في بلادنا ترى المنصب الأعلى هو العصا السحرية لتحسين الأوضاع، فتعين عبدالغني علي وزيراً للاقتصاد ثم وزيراً للخزانة، ثم مجدداً وزيراً للاقتصاد.

فتنقل من مكتب إلى مكتب دون أن يقتدر على تحريك الحياة الاقتصادية، لأنه أصبح وزيراً على مجموعة من الكتبة، سواء في وزارة الاقتصاد أو وزارة الخزانة.

من الجميل أن يشغل المتخصص منصب وزارة في تخصصه، شريطة أن يكون في الوزارة عشرات من تخصص ذلك الوزير في سائر الدوائر والأقسام، لأن الوزير مجرد رمز سياسي، أما الذين يديرون الأمور فهم كبار الموظفين وصغارهم، فماذا يجدي وزير خزانة بلا كوادر اقتصادية أو وزير اقتصاد بلا كوادر من نوع تخصصه؟!

صحيح أن وزير الاقتصاد في العالم المتقدم رجل اقتصاد، وزير الصحة دكتور في الطب، ولكن إلى جانب هؤلاء عشرات المتخصصين وجيش من الكوادر الفنية والإدارية، أما إذا أصبح الوزير المتخصص على غير متخصصين فإن معارفه ستظل سجيبة مكتب فخم في هذه الوزارة أو تلك.

وكان عبدالغني علي يشعر بحرج ذلك الموقف، لأنه كان لا يعمل شيئاً في وزارة الخزانة إلاّ صرف الأموال لقادة الحرب، ولا أشق على وزراء الخزائن من صرف الأموال، وبالأخص إذا غاب التعادل بين الوارد والمنصرف كما كانت الأحوال بعد ثورة سبتمبر.

لقد كابد عبدالغني علي أزمة الشعور بالحرج، فما أراد أن يكون وزيراً وإنما ندب نفسه لأن يكون جندياً في جيش الكوادر في أي موقع من مواقع الإنتاج أو إدارة المنتجين.

وكان عبدالغني علي في ذلك الوقت يرى بعض الخريجين يشغلون أكنة مناسبة، ففي عام ١٩٦٤م تخرج الدكتور عبدالله الحريبي، وعمل في المستشفى الجمهوري وحقق مهمات هائلة وسمعة عطرية، إذ كان يجري الجراحات بنجاح أمهر الأطباء، كما كان يعالج الأمراض الباطنة بكفاءة فذة.. وحقق بعض الخريجين كفاءة ملحوظة في إدارة البنك اليمني للإنشاء والتعمير، وفي لجنة النقد التي كونت فكرة البنك المركزي المعروف اليوم، وبهذا انبسط أمل عبدالغني بالخريجين من

الشباب الذين يمارسون تخصصهم الاقتصادي عن دراية بأحوال البلد ومتطلبات المعركة المفروضة.

غير أن المشاكل السياسية تفاقمت فاستحوذت على الانتباه، نتيجة انشقاق الصف الجمهوري وتباين الأهواء في المواقع الحساسة، وكان عبدالغني علي جزءاً من التحرك السياسي، وكان أميل إلى الاقتصاد التقشفي، على حين كان البعض يفرض على شمال الوطن شكل الاقتصاد الخليجي، ولكن بدون نفط...!!

ودارت دورة الزمن فقام انقلاب ٥ نوفمبر ١٩٦٧م فسيطروا المعتدلون، كما كانوا يُسمون، على الموقف السياسي والعسكري.. وكان عبدالغني علي خارج الوطن عند وقوع الانقلاب، واشتمَّ التغيرات السيئة فظل مبعداً عن اختياره وعن قصد الحاكمين في صنعاء، فنزحت خبرته التي جاءت من تعليمه، وكابد الغربة من آخر الستينيات إلى أن أقعده مرض عضال في آخر السبعينيات، فمات بعيداً عن الوطن الذي أحبه من كل قلبه، وجنَّد له خبرته ونظرياته.. واليوم وقد انتقل عبدالغني علي إلى رحاب الله، من ذا يستطيع أن يقول هذه عمارة عبدالغني علي؟ أو هذه مزرعة عبدالغني علي؟ أو هذه أرصدة عبدالغني علي؟! لقد خرج من المناصب الوزارية نقياً كخروج الأمطار من ضمائر السحائب.

(١٠)

علي بن علي الأنسي (الفنان)

منذ القدم تأخى الشعر والغناء، وقيل أن أصل الشعر في الفارسية (شيرى) أي الفن الغنائي، وكان يقول العرب أنشد الشاعر الفلاني قصيدة.. وعبارة أنشد توحى بالغنائية أو باختلاف الإنشاد عن الإلقاء.

ثم التقى الشعر والغناء في ظل الحضارة العربية، إذ كان المغنون من عصر الجاهلية إلى العصر العباسي الثاني يغنون قصائد شهيرة، وغالباً ما تكون غزلية.

ثم نشأت الأغنية الشعبية في أول القرن التاسع الميلادي، فزاحمت أغاني القصور التي كانت قصائدية، ولاقت الأغاني الشعبية استحساناً واستطرافاً، لما لها من نكهة المراعي والأودية.. على حين استهلك المغنون معظم القصائد، وقد اشتهر من اليمن في القرن التاسع الميلادي غنائيون لا يقلون عن إبراهيم الموصلي وزلزل وإبراهيم المهدي وزرياب من أمثال يحيى البُنَيوي وزِيَاد بنان.

وتواتر الفن الغنائي، إلا أنه لم يصادف مجالاً خصباً في عواصم السياسة اليمنية بعد استقلالها عن خلافة بغداد، في آخر القرن التاسع الميلادي، لأن الخلافة التي كانت تحكم تلك الفترة كانت

متشددة ضد الفن الغنائي، فكان الريف أرحب لفن الأغاني وكانت أغلب أغاني الريف أهازيج عملية كأغاني نزح المياه.. وأغاني الحصاد، وأغاني الشَّرَف.

وكانت هذه الفنون قديمة لم يطرأ عليها تطور إلا في المناسبات الأفراحية كالأعراس، أما أغاني العمل فكانت موسمية.. وتختلف أغاني كل موسم عن الموسم الآخر، فاختلّفت أغاني الحصاد عن أغاني البذر.. والتي ظلت نمطاً واحداً هي أغاني الحرث والسواني.. لأنها لا تتقيد بموسم وإنما هي أنفاس الأعمال اليومية وكانت أقرب إلى المواويل.

لهذا كان اليمن غنائياً.. لأنه زراعي رعوي، وكان الرعاة والراعيات أبرع مبتدعي الأغاني العاطفية، ولم يتطور الفن الغنائي في المدينة إلا بمقدار، لأنه كان محجوباً لكونه ممنوعاً، ولم يتنفس الفن الغنائي إلا في فترتي الاحتلال العثماني، إذ كان يلاقي تشجيعاً من الوالي وأتباعه، وبعد انجلاء الأتراك عام ١٩١٨م عن اليمن كان الفن الغنائي قد تبلور، ولم يستطع المنع أن يوقف انتشاره وتطوره، برغم أنه كان يؤدّى في المجالس الإخوانية في ظل سريّة متوجّسة، فكانت حياة الفنانين مقصورة على الأصدقاء وعلى أصحاب المزاج من بعض المسؤولين، وفي سرية حذرة.

نتيجةً لمنع الفن الغنائي ترعرع الإنشاد، الذي كانت مادته القصائد، بشكليها الديني والعاطفي. فكانت القصائد الدينية أناشيد المآتم، كما كانت القصائد العاطفية أو الوصفية الوقورة أغاني

الأفراح على حسب تقاليد البيوت، وكان أشيع القصائد الإنشادية في العشرينيات قصيدة ابن هتميل (أنا من ناظري عليك أغار) وقصيدة موسى بن يحيى بهران التي مطلعها:

بات سميري والبرايا هجوذ

بدرٌ تجلى في سماء الصعود

وقصيدة محمد بن إسحاق: (سلب العقول بطرفٍ أحورٍ أدعج)، وقصيدة البرّعي:

(يا صاحبيّ خذا الطريق الأيمن)

وحذار من ظبيّات ذاك المنحنى).

وغير هذه القصائد كثير، التي كانت تنشد في المناسبات العائلية والإخوانية.. وكان أشهر المنشدين في الثلاثة العقود الأولى من القرن العشرين العلامة سيدنا أحمد الطرّمّاح وحسن مرغم والعزي النعماني في صنعاء، وسعد عزان وعيال البصير في ذمار، ويحيى الطويل في يريم.

وكان هؤلاء يجمعون بين الإنشاد الديني والإنشاد العاطفي على حسب المقام وطلب الحضور، فكان إنشادهم غنائياً كما كان غناؤهم إنشادياً.

أما الذين انقطعوا للغناء وأجادوه فسعد عبدالله في صنعاء، ويحيى الرّياشي في كوكبان، وقيل إن كوكبان غنائية كلّها!!

وفي منتصف الثلاثينيات لاح اسم الشاعر أحمد عبدالله السالمي كنجم غنائي بعد سعد عبدالله، ثم توالى نجوم الغناء بفضل استديوهات التسجيل في عدن التي احتفظت بأحلى الاصوات وأسمى الغنائيين المنقطعين لهذا الفن، من أمثال علي أبو بكر، فضل محمد اللحجي، أحمد عبيد قعطبي، قاسم الأخفش، أحمد فيزي السمة، محمد عبدالله قحطة، ومحمد جمعة خان.

وبفضل استديوهات التسجيل انتشرت الأسطوانات في الشطر الشمالي فاكتملت المجالس رغم منعها.

وفي الخمسينيات بدأ المنع يتراخى قليلاً، فلمع قاسم الأخفش كمغنٍ يمد الأصالة من سعد عبدالله إلى القعطبي وتميز قاسم الأخفش بالتحديد في العزف وإن كان ضعيف الصوت.

ومن منتصف الخمسينيات إلى الثورة لمعت نجوم جديدة وطور جديد فنشأت فرق الموسيقى العدنية مضيئةً آلات جديدة إلى العود، وفي تعز تآلق علي الأنسي في سرية، كما تآلق علي أحمد الخضر إلى جانب الأنسي، وكانت مجالس تعز تتراقص بالفنانين الجديدين، ولاقى الأنسي والخضر مرتعاً ممرعاً، إذ نشأ في بيئة ثقافية فنية فكانت تحيط بهما كوكبة من المثقفين أدبياً ومن النواقيين فنياً، من أمثال الشاعر علي بن علي صبرة وهاشم المرتضى وعبدالرحمن شمهان.

فغنى علي الأنسي في تلك الفترة للشاعر علي صبرة عدة أغنيات أشهرها (أهلاً بمن داس العذول) وكان علي الأنسي في اليمين كأم كلثوم في ذوق الكلمة وغنائية العبارة وموسيقية

القصائد المغناة، فتغنى علي الأنسي بأشعار علي صبرة والسالمي وأبي فراس إلى جانب أشعار الأنسي وشرف الدين وفايح التي ردها المغنون الأولون، إلا أن علي الأنسي أدخل على الأغنية القديمة ذبذبات جديدة وأداء جديداً فغنى الذي غنى قبله بأداء مختلف، وأحيا قصائد كادت أن تموت، وابتدع تلحين قصائد جديدة.. وكانت إذاعة صنعاء قد بدأت تذيع الأغاني تارة وتوقفها تارة، ثم استمرت في إذاعة الأغاني من عام ١٩٥٧م ولم توقفها إلا في شهور رمضان.

ولهت الإذاعة وراء علي الأنسي، إلا أنها لم تظفر منه بأغنية، واعتبر مقاطعة الإذاعة ضرباً من رفض العهد السياسي.. وكانت إدارة الإذاعة تجبر المغنين المعروفين على الوصول إليها وتسجيل أغانيهم بمناسبة عيد الجلوس.

وكان يقبل البعض ويختفي الأكثر.. ولما أشرفت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر كان علي الأنسي أول الأصوات التي رحبت بالثورة.

* * *

بدأت إذاعة الثورة في الثلاثة الأيام الأولى ترسل أغاني جديدة كان يردها المذيعون وبعض الفنانين، مثل (جيشنا ياذا البطل) وبعد أيام قليلة لحن علي الأنسي وغنى قصيدة من شعر علي صبرة بعنوان (في السهول والجبال).

وبدا علي الأنسي مُميّز الأداء، مميّز العزف، وانضاف إليه فنانون جدد لم تعهدهم الإذاعة والمستمعون، من أمثال حمود زيد عيسى الذي غنى من شعر سالم السَّبْع (أخي المهاجر) وغيرها من الأناشيد الثورية ومن أمثال علي عبدالله السمة، إلى جانب الذين وصلوا من عدن كمحمد سعد عبدالله ومحمد مرشد ناجي.

بهذا تبدّى فن جديد منسوج بضياء الثورة ومتفجر من قلب الفرحة، غير أن علي الأنسي، لم يقف على التسجيل للإذاعة وإنما تنقل في المعسكرات فأحى السهرات الإطرايية، غنى في أول حفلة قصيدة (أذن الفجر ونادانا الكفاح) من شعر يحيى عوض محمد، وغنى (قسماً برب العزة) من شعر أحمد العماري، وكان ينتقل من معسكر إلى معسكر يُوجج الحماس ويرفه عن الجنود بدون أي مقابل، وظل على هذه الوتيرة من عام ١٩٦٢م، إلى آخر ١٩٦٤م.

* * *

بعد هذه الفترة عكف الأنسي على تجديد فنه، فأجاد العزف على القانون وأدخل على الأغنية موجات جديدة من النغم والأداء. وتجلّى هذا في أغانيه (أقبل الليل، يا طير يا ناشر، وقف وودع) إلى آخر هذا المسرد من العناوين.

غير أن ميزة علي الأنسي تتمثل في تجده من أغنية إلى أغنية، وفي تطوره من أصل الفن اليمني، فلم يكرر عهد أبو بكر

والقطني والأخفش، وإنما انطلق منه يساعده صوت عديد الذبذبات رخم المخرج، لين المفاصل.

أما ميزته الفنية التي اعتمدت على أصول، فانطلاقته من ثمانية مقامات دون أن يمد أصواتها وإنما انطلق منها إلى صوته الخاص.. وكان لصوته رنة طفلية وبحّة غلمانية وجهورية رجالية، كما تبدّى في بديعته (أنا يا بوي أنا، البن والحب، الزفة العدينية).

وقد حاول كوكبة من الفنانين تطويع الزفة العدينية ونجح علي الأنسي نجاحاً نسبياً بصوته المديد ولم ينجح بعزفه، لأن تلك الأغنية على شكل الموالم تحتاج إلى ناي ليتجاوب مع الآلات ويتناغم مع امتداد الصوت، لأن الزفة العدينية مخصصة لزفة العروس، وامتدادها يناسبه تحرك موكب الفرحة، ولا يناسبه الأداء على الأوتار وحدها، إلا أن علي الأنسي توفّق صوتياً، تطاوعه ذبذباته اللينة وخامته القادرة على التذبذب على الأصوات والأنفاس.

* * *

لقد حقق علي الأنسي خطوة متقدمة في الثورة الغنائية، وكانت ثورته الغنائية نابعة من ثورته الشعبية، ألم يكن صوته ثاني السلاح في كل موقع؟ ألم يكن رفضه في التعامل مع الإذاعة في العهد البائد رفضاً ثورياً؟

لقد تواصل إبداع علي الأنسي وكان صوته معباً بحرارته
الوجدانية وبديريته بالتجديد، إذ لم يجدد على تجارب خاصة،
وإنما عن معرفة بأصول الغناء اليمني وبالمقامات القابلة للقبولة
على الطابع اليمني، حتى أنه أحيى قصائد أمانتها الأوتار القديمة
مثل قصيدة عبدالرحمن الأنسي (يا طير يا ناشر بضو باكر)،
فقد عكس صوت علي الأنسي جو الصباح وحركة طيوره
وحفيف أشجاره، وكأنه يتفجر من قلب الطبيعة الضوئية
الخضراء.. على أن فن علي الأنسي الغنائي أوسع من أن
يتناوله متذوق متابع، وإنما يحتاج إلى متخصصين وإلى حيز
أوسع يقبل التفاصيل والتمثيل.

لقد أحدث علي الأنسي ثورة غنائية متجددة من قديم، ومؤصلة
على علم فني، فقد ظل يواصل الغناء من فجر الخمسينيات إلى
أن أسكته الموت في مطلع الثمانينيات، فولى تاركاً بدائع من
الغناء وروائع من الشعر المغنّى، لأنه كان يجيد اللحن ويحسن
انتقاء الشعر المغنّى.

(١١)

أحمد سالم المعمرى

عندما تُؤَلَّى الحقبة الزمنية تتحول أوجاعها السيئة إلى أجمل الذكريات لسبب واحد هو غياب تلك الحقبة، وبغياب زمن الأوجاع تتحول الأوجاع إلى ذكريات.

لأن الزمن كالناس يولي ففتحول سيئاته إلى حسنات كما تتحول سيئات الشرير بعد موته إلى أحاديث وذكريات مسلية.

والناس لا يذكرون إلا خير ما عرفوا عن المُؤَلَّى من الأزمان والناس، والزمن الذي يأتي يشغل بقلقله الجديدة ومشاكله اليومية عن مواجع الماضي، لأن الحاضر وجع مباشر مشهود.

وهذا ما حدث بعد الثورة، إذ انبعثت المشاكل الدفينة حيةً على وجه الحاضر، وتبدت ذات مخالب وأنياب لتدخلها بمشاكل الحاضر.

ذلك أن العهد الذي سبق الثورة كان كالوادي العريض المديد، نبتت فيه العواصج والحناظل والكروم والورود، وأثمرت كلها تحت شمس العهد الثوري، لأنها كانت مكيوتة وأتيح لها الانفراج، وكان سبب إيلاهما يرجع إلى وفرة الحس بها، لأن العهد الذي مضى كان ذا مشاكل لم يتوفر الحس بها.

كزمن الثورة الذي كان قوي الحس، قوي الحساسية نحو ما امتد من الماضي، وما استجد في الحاضر من المتاعب.

لقد سبقت الإشارة في حلقات سابقة إلى الحساسيات التي انبعثت بين ضباط الثورة، وتجدر الإشارة إلى الحساسيات التي استجدت بين جنود الثورة، لأن قيام الثورة وما واجهت من عدوان استدعى أبناء الشعب إلى التجنيد، فجاءت أمواج الجماهير من كل المناطق طوعاً واختياراً، جاءت جماعات من عدن ومن لحج ومن تعز ومن إب ومن يريم ومن عتمة ومن تهامة، وكان الذين جاءوا من جنوب الشمال ومن الشطر الجنوبي مدفوعين بالتيار الوطني الثوري، ولا عهد لهم بالحروب كأبناء هضبة صنعاء وما حولها، لأن هذه المناطق حربية بالطبيعة وبتوارث الحروب، على تعاقب التاريخ، وكان أغلب جنود الجيش النظامي من هذه المناطق، كما دلت أسماء البلكات في الجيش النظامي، البُلك المطري، بُلُك سحان، بُلُك داحش الفُناصة، النامونة.

وكان أغلب هؤلاء من مناطق صنعاء إلى صعدة إلى حجة.. أما الذين جاءوا من مدارس عدن وتعز وإب والحديدة، أو من مطاعمها ومقاهيها ومتاجرها فلم يكونوا على وراثة حربية وإنما كانوا على أقوى استعداد لتعليم استعمال السلاح وللتدريب على كل أنواعه.

وعندما جاءت هذه الأفواج المتطوعة بمقتضى إلحاف الحاجة الوطنية، لاقوا حساسية عند بعض الجنود النظاميين، لأنهم

أحسوا أن هذا الجيش بديل عنهم أو أنه سيكون بديلاً بعد وقت، فتقوت الحساسية بين بعض الجنود النظاميين وبين المتطوعين الذين تسموا بالحرس الوطني، غير أن المعركة كانت تتسع وتمتد، وكان المتطوعون أشد حماسةً واندفاعاً..

فلم تمهلهم المعركة للتعلم الكافي وللتدريب اللائق بمواجهة محاربين محترفين مطبوعين على الحروب، فانتقلوا بعد أيام من تدريبهم السريع إلى خوض الحروب في جبال لا يعرفونها، وإلى محاربين لا يعرفون خبرتهم ولا يملكون مثلها، بيد أن الاندفاع الوطني واستعمال السلاح أعطاهم اختباراً، ولكن مقابل ضريبة فادحة من الشهداء، إذ كان يتساقط الشهداء من الحرس الوطني كل يوم، وكان هذا الاستشهاد لا يمنع زملاءهم من سبر أسرار المعركة ومن التعلم الميداني على السلاح وعلى أسرار القتال، وكان بطل هذه الحلقة أحمد سالم المعمري من الذين احترفوا أساليب القتال بسرعة، لأنه كان ذكياً في المدرسة بطبعه وكان دخوله الحرس الوطني عن نازع وطني وعن معرفة بنوايا العدوان، لأنه كان متقفاً إلى جانب تعليمه المتوسط، فكان لكلماته في زملائه تأثير السحر.

خطب يوماً في العرقوب قائلاً: "ليس هناك شجاع ولا جبان، وإنما هناك تمرّن على الشجاعة، ولن نحصل عليه إلا بمزاولة الأخطار ودخول ميدان النار، وها نحن نلاحظ تقدمنا في التعليم الحربي وانتصاراتنا في أكثر من موقع، فهؤلاء الأعداء يستهدفوننا طامعين في أسلحتنا فيزوقون بها الموت".. وضرب الأمثال بالمواقع التي احتلوها وبالربوات التي طهروها

وأجلوا عنها المحاربين المحترفين، فذكّر زملاءه بطعم النصر وحلاوة الحرية، وكان إلى جانب إقناعه الخطابي يزداد درايةً بواقع القتال ومواقفه.

* * *

برهن الحرس الوطني يوماً بعد يوم على امتلاك الشجاعة وعلى اكتساب خبرة الحرب، وكان بعض الجنود النظاميين قد تخلوا عن حساسيتهم إزاء الحرس الوطني، فتقوت أخوتهم السلاحية، كذلك تأكدت الروابط بين الحرس الوطني والجنود النظاميين من جهة والجيش القبلي من جهة ثانية، وكانت القبائل التي أجابت نداء الثورة من أول يوم هي قبيلة الحذاء وقبيلة حاشد وجماعات كثيرة من المناطق القبلية.

بهذا تزايد جيش الثورة وتنوع، وكانت القبائل التي تجندت في صف الثورة لا تقل مهارة في الحروب عن القبائل التي ناوتها، وسادت أخوة السلاح تحت لواء الثورة بين كل المجندين من كل المناطق.

فتخفف العبء عن الحرس الوطني الذي تزايدت خبرته وتعزز بأعداد جديدة من مناطق تعز وعدن.. ورغم الأخبار التي كانت تُردّد أسماء الشهداء وتبالغ في أرقامهم، كما هي عادة الأخبار الشفوية، إلا أن الشعب الثائر قد أصر على خوض الميدان حتى النصر.

* * *

عندما تعزز الجيش اليمني بالجيش المصري رجحت كفة الجيش الجمهوري وامتدت أرض الجمهورية إلى أطراف الحدود الشمالية والشمالية الشرقية، ولا سيما بعد انتصار صعدة وحزم الجوف، وبعد معركة حرص التي شكلت الحد الفاصل بين الجمهورية وأعدائها والمتعاطفين مع أعدائها.

هناك أصبحت الجمهورية قوةً مُهابة الجانب، وبدأت تعد الجيش القوي للمستقبل، فالتحق أعداد من الحرس الوطني بالكلية الحربية التي فتحت بالروضة عام ١٩٦٤م بديلاً عن كلية صنعاء، وكان أحمد سالم المعمري من أول دفعة التحقت بالكلية الحربية.

وأثبت أبناء الحرس الوطني الملتحقون بالكلية الالتزام بالانضباط والحرص على التحصيل كعادتهم في المواقع، وكانوا يتمتعون بخبرة ميدانية يستفيد منها أساتذة الكلية، إذ سجلوا طبيعة المواقع التي قاتلوا فيها وصعوبة الجبال الشاهقة وكيفية التسلق إليها فأضافوا مادة إلى التعليم.

إلى جانب هذا فإن طبيعة المعركة كانت تستدعي خروج طلاب الكلية الحربية إلى مواقع القتال مدة أسابيع أو شهور ثم يعودون إلى الكلية، وكان أحمد سالم المعمري يتابع الثقافة الكتابية إلى جانب دروس الكلية ومعارك المواقع، فاشتهر بحصافة الرأي وإجادة التعبير عنه.

سأله أحد أساتذته بعد رجوعه من المعركة: كيف القتال؟ فرد المعمري: "مادام هناك عدوان فلا بد أن نقاتل، ليست المسألة

بطولة وإنما هناك واجب، ومادام شعبنا يحارب فهو حي، وما دام العدوان متواصلاً فهناك شعب محارب، ومن لا يحارب لا ينتصر".

بعد أن أمضت دفعة المعمري مدة الدراسة التحقت بالمعسكرات على حسب تخصصها، فانضافت إلى الجيش دفعة جديدة أحرّ نبضاً وأبعد نظراً إلى أساليب الحرب والغايات منها.

* * *

في عام ١٩٦٧م استدعت إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي أحمد سالم المعمري من سلاح الدبابات، لكفائه الإعلامية وقدرته على حسن التوجيه المعنوي نظراً لخطورة الفترة، ففي ذلك العام ارتحل الجيش المصري، وتحمل جيش الثورة وحده مسؤولية الدفاع والقتال مع قوة غير متكافئة.

فقد كان الجانب العدواني أكثر عدداً إلى جانب المئات من المحاربين القدماء الذين اجتلبوهم من أوروبا، فاستدعى الواجب تشكيل المقاومة الشعبية عام ١٩٦٧م، وقام أحمد المعمري بأشق الأعمال، كان يُدَرَّب أبطال المقاومة نهائياً ويؤدي التوعية ليلاً، وكان يحارب في المواقع التي يذهب لتوعيتها فيؤدي المهمتين بكفاءة نادرة، وكان التوجيه المعنوي في المواقع نوعاً من القتال ومن تعليم القتال ومن التوجيه المعنوي لرفع معنوية الجنود، فتنقل أحمد المعمري من موقع إلى موقع محرضاً وموجهاً ومقاتلاً..

وطالما لبث في الموقع الواحد أياماً، لشدة الضغط عليه من المعتدين، ولا يبارح الموقع إلا بعد أن ينهزم المعتدون، وبعد أن يشكل خرقاً لشن الهجوم المضاد، وكانت هذه الفكرة ألمع فكرة حربية.. قال أحمد المعمرى: عندما يرانا المعتدون نهاجمهم في أوكارهم ييأسون مرتين.. مرة ييأسون من جدوى حربهم، ومرة يشعرون بطول أيدينا إليهم".

وكانت الفرق التي يبيعها تعود ظافرة وغائمة أكثر الأسلحة، لأن المحاربين المعتدين كانوا في حالة تغرير، إذ أوهمهم قادتهم أن جيش الجمهورية مجموعات من المراهقين ومن طلاب المدارس، ولا يكلف اكتساحهم إلا أدنى الجهد...!! وهذا ما ألحق الخسائر الفادحة بالمعتدين، لأن الاستهانة بالعدو توقع مُعاديهِ في هوة الغرور، أما الذي يحسب حساب عدوه ويملك أسرار قوته وتقدير مواقفه العسكرية فإنه الذي ينتصر، لأنه يُقوي استعدادَه لمواجهة الخطر.

وكان أحمد سالم المعمرى يُكثّر أمثاله من الموجهين عن طريق القدوة به والأخذ من معارفه.

* * *

كان أحمد المعمرى يلقي المحاضرات في التوجيه المعنوي على زملائه من الضباط الذين ينبثون في المعسكرات، والذين يذيعون برنامج القوات المسلحة، إلى جانب تدريبه للمقاومة الوطنية التي أحبتها، وكانت تسميه الضابط الوطني، على حين كانت تلقب ضابطاً آخر بالضابط البرجوازي لأنه كان يقتصر

على مهمته ولا يشارك في مهمة الهجوم والدفاع، وقد تعودوا من المعمري والذين تعلموا منه أداء التوعية والمشاركة في القتال.

وذاث يوم كان أحمد سالم المعمري في أهم موقع دفاعي عن صنعاء، واجه ضغطاً هجومياً فظل يقاتل ويوجه ويُسيّر طلقات المواقع المتضامنة مع موقعه، حتى انقشع المحاصرون مدحورين، وفي وقت الشعور بالنصر وفي لحظات الأمن هبت قذيفة من بعيد فأصابته أحمد سالم المعمري قاتلة إياه، وهناك رفع يده مردداً:

"لقد انتصرت وطوبى لليمن المنتصر".

(١٢)

أحمد بن أحمد الكبسي

تكاثرت الكتابة في السبعينيات عن تمرد الشباب وأسبابه، وصدرت كتب تحمل كهذه العناوين: ثورة الشباب، أزمة الشباب، تمرد الشباب..

وكانت هذه الظاهرة جديدة على أوروبا التي ترى أن الشباب عهد تحصيل وصبى وإعداد للرجولة.

أما في بلادنا فقد كان للشباب في الخمسينيات طفور ولكنه مشروع، إذ لم يبلغوا حد التهور ولا تجاوزوا مشروعية الطموح.. غير أن المقام كان يستنكر أطوار الشباب قياساً على آبائهم، وهذا ما يثير الالتفات إلى جيل الخمسينيات والذي سبقه.

كانت الفترة الممتدة من ١٩٢٠م إلى ١٩٤٠م فترة الاطمئنان أو فترة اللامبالاة.. وكان شعار ذلك الجيل حين يرى ما لا يحب (ما شاء الله كان.. دباب لوما يجي الموت.. لها مخرجات).

أما الأربعينيات فقد جاءت بالهزات التي حركت الطمأنينة بعض الشيء، وأثارت التساؤل عن بعض الأمور، ولا بد أن يتطور هذا القلق النسبي، فتبدت أطواره في الخمسينيات على عدة أشكال سيئة وحسنة، أما السيئة فميل أكثر الشباب إلى التدخين، حتى في دار العلوم حيث الصرامة في منع التدخين ليل نهار..

وكانت العقوبة على التدخين تصل إلى فصل الطالب، وتسمى هذا طفوراً واستعاذ الشيوخ بالله من الوقت الذي عرفوه.

أما الحسنات فعديدة، أهمها ميل الطلاب إلى الكتب الثقافية لكي توسع مداركهم، وكان ميل البعض إلى هذه الكتب يرجع إلى الملل من دراسة الكتب القديمة، حتى وصل الطفور إلى التمرد على الشيوخ والدروس في الستينيات.

وكان الشعور بالحرمان شديد الوطأة على النفوس، إذ لم يعد الصرف الحكومي يكفي الطلاب الذين اتسعت رغائبهم أمام الواردات المغرية، وأمام المقاهي التي بدأت تفتح في الستينيات، فبدأ الشباب الذين التحقوا بدار العلوم والثانوية في آخر الخمسينيات وأول الستينيات، غير قادرين على استيعاب تلك الدروس.

ومن أولئك الطلاب الذين جمعوا بين النباهة وبين الضجر من تلك الدروس الروتينية بطل هذه الحلقة أحمد بن أحمد الكبسي.

* * *

كانت المجالات في آخر الخمسينيات وأول الستينيات محدودة، فليس أمام المرء إلا أن يكون تاجراً أو موظفاً في أي درجة أو فلاحاً.. لم يكن هناك من المرافق الأخرى غير التمريض أو العمل في شق الطرق، أو قولبة الأحجار للعمارة.. وكان أكثر الطلاب يتخرجون إلى شقّ الطرقات في ريدة وعمران وسمارة.

وكانت تلك الطرق بدائية، إلا أن أكثر خريجي الخمسينيات من كل المدارس اشتغلوا في شق الطرق الترابية الصخرية، وكان هذا لا يليق بأبناء كبار الموظفين من أمثال أحمد بن أحمد الكبسي الذي بدا رافضاً لدروس دار العلوم التي أهلت الآباء للمناصب القضائية والإدارية.. وكاد أحمد بن أحمد الكبسي أن يغادر المدرسة من الضيق بها، ولم يجد مجالاً إلا عندما قبلته الكلية الحربية بعد سنة من دخول الدفعة الأولى.

ولم يصل إليها إلا بعد إلحاح الطلب، وبعد الانقطاع عن الدراسة لطلب الالتحاق بالكلية.. وتبدى في الكلية عسكرياً من طراز رفيع، لأنه كان قبل دخوله الكلية يمارس الرياضة بكل أنواعها، ومع ذلك لم تكن قوته العضلية على حساب قوته الذهنية، وإنما كان يميل إلى أي دراسة تختلف عن دراسته الكتب الصفر، فأبدى ذكاءً في التعليم العسكري وتفوق في كل الامتحانات حتى تخرج قبل الثورة بشهور.

* * *

كانت الشهور التي تخرج فيها أحمد الكبسي شديدة الوطأة على كل الخريجين في الكلية الحربية، لأنهم تخرجوا في وقت الحساسية من الجيوش الذين كانوا يفجرون الثورات في العالم الثالث.

وكان المد الناصري يهز أرجاء المنطقة، وكان تقبله على أشده عند جماهير اليمن، لهذا لاقى الخريجون التغاضي والضياع

سواء تخرجوا من الكلية الحربية بصنعاء أو من أي كلية حربية خارج اليمن.

وقد شكل الخريجون العسكريون عدداً لفت انتباه السلطة وأثار مخاوفها.

تخرج في الكلية الحربية بالقاهرة عبداللطيف ضيف الله، علي سيف الخولاني، عبدالله المقبل، لطف الزبيري، محمد محسن الشامي، ولطف العرشي.

وتخرج في الكلية الحربية اليمنية مقدار مائة ضابط فكان هؤلاء موضع الرقابة، وكان لبعضهم أعمال إسميه، لأن إمارة الجيش كانت مدنية لا تعرف قيمة المتخرجين، بل تخاف مخاوف القصر من مجيئ البديل.. حتى الخريجون الذين ينتمون إلى الطبقات العليا من الموظفين، فإن التوجس منهم حال بينهم وبين تشكيل وحدات عسكرية يقودونها أو يقومون بتدريبها.. إلى حد أن بعض الخريجين في الكلية الحربية عادوا إلى وظائف مدنية ولم يعودوا إلى العسكرية إلا بعد الثورة.

وكان أحمد الكبسي قريب العهد بالتخرج فلم يضجر كثيراً، لأن الثورة كانت تدق الأبواب.. ولما تبرّجت تألق خريجو الكلية الحربية وزملائهم من سائر الكليات كثوار أجابوا نداء الشعب وحققوا بأسلحتهم محو السلطة المستبدة المسلحة.

كان الضباط في منتهى الكفاءة لمواجهة الأخطار وقيادات المناطق، غير أن قيادات العسكريين في المناطق العسكرية

أثارت حساسيات بين الأنداد، لأن العداوة تستحرُّ بين الأنداد
لتماثلهم أو تشابههم، كما تستحرُّ بين الأضداد لقوة تنافرهم
ولانعدام ثالث يزيل الضدين.

لهذا قابل القادة في بعض المناطق نفوراً من أهلها إلا أحمد بن
أحمد الكبسي، فإنه كان في منطقته موضع التقدير والحب.

* * *

على رغم الاحتياج لأحمد الكبسي فإن المشاكل السياسية بين
القياديين كانت تتفاقم وتهداً، وكان هناك توقع من انقلاب على
القيادة حينذاك.. فتعين أحمد الكبسي قائداً للواء إب، حيث لم
يتفجر تمرد ولا علت نبرة تذمر، فكيف تحول المحارب الخبير
في شدة الحرب إلى قائد لواء مسالم، وهو مستमित في الذود عن
الثورة؟

لقد كان تعيين أحمد الكبسي في إب كإبعاد عن العاصمة وعن
المعارك يعزى إلى غرض سياسي، ولا يخلو من بعد نظر، فقد
كان لواء إب حرياً بقائد محبوب كأحمد الكبسي.

كان أحمد الكبسي في لواء إب دائم الحضور إلى جانب
المواطن، كان يزاوُل مع الشباب الألعاب الرياضية ويختلط
بالمثقفين.. وفي مكتبه يدخل إليه كل مواطن فلا حارس ولا
أوقات منع، وإنما كانت كل أوقاته لقضايا المواطنين لأنه كان
واحداً من الناس ليس له من مظاهر القائد شارة أبهة، وإنما كان
مواطناً يتحمل مسئولية المواطنة.

كان يوجد في المقهى وفي الملعب وفي المقوات، فليس بينه وبين المواطن إلا الصلة الحميمة والمودة الصادقة، فأدى حب لواء إِب له إلى طول مدته، فكلما أرادت القيادة بصنعاء استدعاء الكبسي لمهمة عسكرية، تظاهر المواطنون وابتعثوا جماعات منهم إلى القيادة بصنعاء لتثنيها عن نقل الكبسي من إِب، ذلك لأن الكبسي كان نقيض كل الذين أداروا أعمالاً في إِب في العهدين.

* * *

ولما كان ارتباط القيادات بصنعاء وثيقاً، كان أحمد الكبسي يصل إلى صنعاء بسرعة ويعود بسرعة حتى لا يتوهم مواطنو إِب انتقاله إلى موقع آخر.

وبمقدار ما كان محبوباً في إِب كان مرموقاً بين زملائه الضباط، مشهوداً له بالتفوق وبالتشف وبالترفع عن أموال المواطنين والدولة.

وربما كان نادراً أن يكتفي قائد بمرتبته غير أحمد الكبسي، الذي قضى سنوات في إِب يأكل كالناس ويشرب مثل الناس وينتقل على قدميه كأكثر المواطنين، ولم يكن يمتطي السيارة إلا لمهمة خارج مدينة إِب، لأن ذلك العمل من مهمات الحكومة ولا يريد أن يشغل سيارة الشعب إلا في مهمة شعبية وظيفية.

* * *

في عام ١٩٦٥م وصل أحمد الكبسي من إب إلى صنعاء كالعادة للمراجعة في أمور، لاستصدار أوامر عليا، لطرح قضايا مع المسؤولين... وظل في صنعاء كما كان في إب ممتزجاً بالمواطنين متتبعا أخبار الزملاء في المواقع والقيادات.

وفي شهر ٦ من عام ١٩٦٥م عاد إلى إب فاعترضه كمين بين نقييل يسلح وصنعاء، وهو على سيارته إلى جانب جنديين، وكان ذلك الكمين من العشرات، فأمطروا سيارته بالقذائف والرصاص بعد أن قاوم الكمين مدة ساعة حتى غلبته الكثرة فسقط مع رفيقيه شهداء.

ومن العجيب أن تلك الفترة كانت أقرب إلى الهدوء، إذ كانت الحرب شبه نائمة في كل المواقع، ليلاقي أحمد الكبسي مصرعه في غير معركة كما كان يود، وبذلك الاستشهاد تحول أحمد الكبسي من بطل شعبي عظيم إلى شهيد أعظم.

(١٣)

أحمد عبدالوهاب السماوي

كان يقول مونتهغمري إن العسكرية تتبع السياسة، وإذا تسيست العسكرية فَقَدَت العسكرية والسياسة معاً.

وهذا المفهوم غير صحيح بدليل أن إيزنهاور هو الوحيد الذي ترأس الولايات المتحدة ثلاث مرات وهو عسكري، غير أن ساسة بريطانيا كانوا يبررون فظاعة استعمارهم فيردون الفظائع التي ترتكبها جيوشهم في الشعوب المحتلة إلى حماقة العسكريين، وكانوا يهدئون جماهير تلك الشعوب بعزل القائد العسكري، لأنه أساء تنفيذ السياسة، أو بعزل المندوب السامي لأنه لا يجيد الإشراف على القوى العسكرية لكي تجيد بدورها تنفيذ السياسة.. وكانت هذه مجرد مغالطة من قبل الساسة في لندن.

وتلقف هذه الأفكار بعض المفكرين العرب، فزعموا أن السياسة لها رجالها وأن العسكريين بعيدون عنها..

وهذا تأثر خاطئ فلا يختص بفهم السياسة المدني وحده ولا العسكري وحده، فقد دلت التجارب أن العسكرية الوطنية هي التي قاومت الاستعمار على حين كانت تتواطأ الأحزاب المدنية

معه، فقد نبه العقيد عبدالله القل إلى خطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين قبل الساسة جميعاً.

أما التاريخ العربي فيدون أن ميزة العربي أنه محارب وأنه فصيح اللسان وأنه عفيف اليد.

وكانت الشجاعة أبهى المزايا، فقد كان كل الناس عسكريين.. حتى في ظل الفتوح الإسلامية فإن الفاتحين لم يكونوا مُعسّكرين كجيوش وإنما كانت ألويتهم عشائرية كما تدل أسامي الألوية المنسوبة، لواء بني زُهره، لواء بني سَهم، لواء همدان، إلى آخره.

وعندما أصبحت الخلافة وراثية عائلية احتاجت البيوت الحاكمة إلى الجندية المحترفة وإلى الرقيق المقاتلين.

وفي اليمن كان الأئمة والسلاطين، بعد استقلال اليمن عن خلافة بغداد، يقودون أكثر الحروب، وأحياناً يضعون على رأس كل حملة عسكرية أحد الفقهاء المقربين، لأن الحرب سياسة وتنفيذ أغراض سياسية.. فتأكد في تلك الفترة مفهوم طاعة العسكرية للسياسة وانقياد الجيوش للسياسة.

باعتبار السياسة علماً تتوارثه الطبقات التي تتوارث التعليم والحكم. لهذا كانت البيوت المتعلمة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي تترفع عن العسكرية، لأنها مجرد منقادة لأوامر السياسة العليا.

وتواصل هذا المفهوم في بلادنا إلى منتصف الخمسينيات تقريباً، وذلك عندما فاجأت القصور السياسية أخبار ثورة العسكريين على الساسة إلى جانب تمردات عسكرية وقعت داخل اليمن.

هناك كاد أن يمّحي المفهوم القديم عن تبعية العسكرية للسياسة، لأن العسكرية أصبحت زعامة سياسية في هذا القطر أو ذاك، وراهنّت الزعامة العسكرية على وطنيتها وعلى ثورتها باسم الجماهير، فتألق في الخمسينيات اسم جمال عبدالناصر في مصر وعبدالكريم قاسم في العراق ويوسف بن خدة في الجزائر، بل كاد أن يلوح المستقبل السياسي للعسكريين في أكثر من مكان.

في تلك الفترة تجدد مفهوم مختلف عن القديم حتى وصل إلى ثكنات الجنود الذين كانوا يرددون (الجيش جناح الدولة) بعد أن كانوا في العقود السابقة مجرد أداة.

إلى جانب هذا التحقت أفواج من أبناء البيوت الحاكمة بالكليات العسكرية لكي تسبق جيش الشعب إلى السلطة أو إلى حماية السلطة السياسية من جيش الشعب. من ذلك الحين تتابع دخول أبناء بيوت الفقه من كل عرق، الكليات الحربية أو كليات الطيران أو كليات الشرطة.

وتعدد الداخلون إلى هذه الكليات في الداخل والخارج، ولما قامت ثورة ٢٦ سبتمبر تبدّى مجد العسكريين يتألق حتى أطرح بعض المعممين عمائمهم والتحقوا بالكليات العسكرية، وفي طليعة

أولئك المتحقيين بالكلية الحربية، بطل هذه الحلقة أحمد عبدالوهاب السماوي.

* * *

نشأ أحمد السماوي في بيت فقه وحكومة، فقد كان جده العزي قاضياً اختيارياً، وكان أبوه قاضياً رسمياً في أكثر من محكمة، ونشأ أحمد على طريقة بيته في تعليم القرآن واللغة والفقه.

وفي عام ١٩٦٠م التحق بدار العلوم مع أخيه محمود، وكانت تلك الفترة متذبذبة الظروف بين الانقطاع عن الماضي وبين الانتقال إلى الغد، فلم يعد طلاب دار العلوم راغبين في تلك الدراسة الفقهية والنحوية والبيانية، لأن فكرة (العلم يخدم الشعوب) كانت سائدة يومذاك، فكان يرى الطلاب تلك الدروس التي يتلقونها، على أنها من علم الماضي الذي باد، دون أن يفتن أكثرهم إلى ما فيها من أساسيات لغوية وفكرية تصلح أساساً جيداً للثقافة المعاصرة، ولفهم أطوار العصر وكتابات صانعيه والمتفاعلين به، فكانت الدراسة في دار العلوم من أول الستينيات إلى قيام الثورة شبه مفروضة، حتى على أبناء الطبقات المتعلمة.

وقد لاحظنا في حلقات سابقة انخراط أبناء بعض البيوت في الكليات العسكرية والأمنية باعتبارها المجال الذي انفتح يومذاك.

ولما قامت ثورة ٢٦ سبتمبر أصبح دخول الكليات متعدد المفاهيم والاتجاهات.. فالتحقت مجاميع بالكليات والمعسكرات

ومواقع القتال حماساً للثورة وافتدائاً للوطن، والتحق البعض بالكتليات لحماية سير الثورة في خطها المرسوم، ودخل البعض الكتليات استجابةً للتغيرات والاحتمالات..

المهم أن تلك الفترة عسّرت الآلاف تلو الآلاف من كل بيت، إما خوفاً على الوطن، وإما خوفاً على الثورة، وإما بحثاً عن المكان السياسي الذي أصبح عسكرياً بفعل التغيرات..

فأدى التعسكر إلى أفضل النتائج، فقد انتقد الحماسي بالحماس، وذابت المفاهيم الشخصية في التيار الوطني الثوري حتى أصبحت النزعات الفردية كقشة في نهرٍ دفاق.. هذا من جهة، ومن جهة ثانية انمحت الطبقيّات والقرويات تحت حرارة التيار الوطني الثوري، فلم يعد هناك فروق بين ابن فلان وابن فلان، إذ أصبح الكل أبناء الشعب وجيش الشعب، فحلت أخوة السلاح محل أخوة الرضاعة والأبوة، وحل الوطن الكبير محل القرية والمدينة، وتحولت العائلات إلى شعب واحد كله عائلة.

وكان البطل أحمد عبدالوهاب السماوي متواصل الجد والجهد في كل مراحل دراسته، فقد كان في المراحل الابتدائية من الأوائل، وكان في دار العلوم من المشهورين بحسن التلقي والأداء، فانتقل إلى الكلية الحربية وهو مطبوع على الجد، معباً بالحس الوطني الثوري.

* * *

زادت بطلنا المشاق العسكرية قوة عضلية إلى جانب القوة الذهنية التي رسختها فيه قراءة الدروس الصعبة من فقه ولغة، ذلك لأن الذي ينطبع على الجدية وإجادة الأداء يحقق التفوق في أي مجال ينتقل إليه، فقد أصبح أحمد السماوي بين زملائه عسكرياً منضبطاً، تحريكاً مرموقاً، شجاعاً في كل موقف، وكان طلاب الحربية في الستينيات ينقطعون عن دروسهم عندما يشتد الهجوم العدوانى فيقاتل أولئك الطلاب إلى جانب الذين سبقوهم إلى المواقع، وكأنهم قد فرغوا من التعليم واستوعبوا خطط القتال...!! وكانت الفترات التي تستنفرهم تعطيتهم تعليماً ميدانياً يفوق التعليم النظري والتدريب، لأنهم كانوا يدرسون من الواقع ما لا يتلقون في الكلية من النظريات الجاهزة.. فتميزت تلك الدفعات التي تخرجت في الستينيات باستيعاب النظريات الجاهزة وإضافة التجارب الحية.

وكان أحمد عبدالوهاب السماوي من المتفوقين نظرياً وتطبيقياً، فحصل على منحة دراسية إلى الاتحاد السوفيتي، وكانت حروب الستينيات تتراوح بين الهمود والانتقاد، إذ كانت تمر شهور لا تبدو فيها قرون الحرب، وكانت أحياناً تفاجئ على حين غفلة، لأن حروب تلك الفترة كانت زئبقية الظروف خاضعة لمدّ السياسة العالمية وجزرها.

وبعد أن تخرج أحمد عبدالوهاب السماوي متخصصاً في المدفعية استجدت الحرب الأشرس ووصلت في تلك الفترة إلى أبعد أمادها، ففي عام ١٩٦٧م اضطر العدوان الصهيوني الجيش المصري إلى الانسحاب من اليمن، فتبادر إلى أذهان

المستعمرين خلو الميدان على أرض اليمن، فانقضت الحملات الرجعية والفلول البائدة على المراكز القريبة من صنعاء، طامعة في احتلال صنعاء وإسقاط النظام فيها، دون أن يفكر أولئك أن خمس سنوات من الثورة المتقدمة قد أنبتت قوى جديدة وعسكرت شباباً كانوا عسكريين بالطبيعة والحماس.

لم يفتن أولئك المهاجمون إلى قوة صنعاء إلا بعد أن وقعوا في الورطة وتوهموا الفراغ.. وعندما وقعوا في أوهامهم حاصرتهم صنعاء التي أرادوا حصارها، لأن أولئك الضباط حديثي العهد بالتخرج جمعوا بين التخطيط والتنفيذ وبين القتال وتسيير المقاتلين فأجادوا طريقتين من الدفاع..

إغراء المهاجمين لكي يقعوا، وشن الهجمات المعاكسة على تجمعاتهم، وكان أحمد عبدالوهاب السماوي في الخندق الأول المدافع عن صنعاء وكانت المعسكرات التي سورت صنعاء بالنار تتناسق فيما بينها دفاعاً وهجوماً، وكان عشق الوطن يغري بعشق الاستشهاد لأنه آية نصر الوطن.

فبعد أن حقق جيش الثورة كسر الحصار وانتقل إلى حصار المحاصرين تأكد الأعداء والأصدقاء أن الثورة باقية وأن نظامها جاء لكي يتسرمد كأرض هذا الشعب المناضل.

وفي غمرة أفراح الانتصار وفي زحمة توهج الشعب بالنصر خاض عبدالوهاب السماوي معركة مدفعية فاصلة حقق فيها رقيه إلى مصاف الشهداء العظماء، فالتحق بأمثاله من الشهداء الشجعان إلى رحاب الله.

(١٤)

علي سيف الخولاني

في عام ١٩٦٠م وصلت من القاهرة الطليعة الأولى من الضباط منهم الملازم ومنهم الرئيس، وكان علي سيف الخولاني أظهر أولئك الخريجين نباهةً وتميزاً لأنه اهتم بعد وصوله مباشرة بجماعات المثقفين ليتبنى هموم المثقف اليمني ونوع ثقافته ومقدار ارتباطه بالعصر الثوري، وكان علي سيف الخولاني يشتتم الأشخاص من خلال المذاكرة ومن سياق التثاقف، وكانت أغلب ثقافته من الأدب الروائي، إذ كان يروي أحداث الرواية الهادفة ونوع أبطالها وهدف المؤلف في الرواية، وكانت الروايات التي يُكثر الإشارات إليها والاستشهاد بها رواية تولستوي (البعث) ورواية سارتر (دروب الحرية) وثلاثيات نجيب محفوظ..

وكان يقول: "لا يمكن للأدب اليمني أن يحقق مستوى أدبياً إلاّ بإنتاج الرواية".. وكان غريب الرأي في هذا لأن الرواية دون مستوى الشعر في كل الأعراف الأدبية إلاّ أن الرواية أغنى بالحيل الفنية وأقدر على تحريك الأبطال وفتح ميادين الصراع بما فيها الصراع الطبقي، ولم تظهر الرواية إلاّ نتيجة ثقافات ثرية أهمها الثقافة الشعرية، غير أن علي سيف ظل يعتبر

الرواية كل الأجناس الأدبية وأفضل كل أنواع الأدب، فتبدى هذا منه تحيزاً نحو الرواية.

صحيح أن الرواية فن الصراع الاجتماعي أكثر من الشعر ومن القصة القصيرة، غير أن علي سيف ظل مصراً على الدعوة إلى الرواية وصنعها وكأن الفنون الأدبية تنبثق بالدعوات!!..

وهذا الميول التعصبي للرواية كفني منعزل عن محيط الثقافة والآداب، يعطي المفتاح لشخصية علي سيف الخولاني كما سوف نرى.

* * *

كان المثقفون من ضباط ومدنيين يدعون إلى الأدب الهادف، أي المعبر عن واقع الشعب، سواء أكان ذلك الأدب شعراً أو مقالات أو قصة أو رواية، إلا أن علي سيف حصر ميوله على الرواية كمخلوق واقعي لا تشاركه في الواقعية سائر أنواع الأدب.

ولما التحق بالتعليم العسكري في الكلية الحربية التي فتحت من جديد عام ١٩٥٨م؛ انقطع حديثه عن الرواية والروائيين، واقتصر على العسكرية والعسكريين فاعتبر السلاح القوة التعبيرية الوحيدة، ولا أثر للفنون القولية بكل أشكالها.

وهكذا انحاز إلى العسكريين قاطعاً الصلة بينه وبين الرواية، فطالب بتخصيص برنامج في الإذاعة للقوات المسلحة.

وأراد علي سيف أن يكون ذلك البرنامج يومياً، غير أن إدارة الإذاعة عارضت هذا الطلب، لأنها كانت تذيع في الليلة ساعة ونصف تفتتح في السابعة وتُغلق في الثامنة والنصف، وبعد شدِّ وجذب تقرر إذاعة برنامج أسبوعي للقوات المسلحة كان يكتبه ويؤديه جماعة من الضباط المثقفين من أمثال عبدالله السلال وعلي سيف الخولاني صاحب الفكرة.

وكان علي سيف في ذلك البرنامج منحازاً إلى القوات المسلحة وكأنَّها قطاع مُميَّز على الشعب، مع أن أبناء القوات المسلحة جاءوا من بيوت الفلاحين والحدادين والنجارين والباعة وصغار الموظفين، وكانت الكتابات المعاصرة تركز على الزعامات التي رقت من هذه البيوت كويلسن رئيس الولايات المتحدة الذي كان ابن حداد وكروزفلت الذي كان ابن فحام، وكتشرشل الذي كان ابن إسكافي.

فكشفت كتابات تلك الفترة أن الطبقات العليا غير قادرة على احتكار الزعامة السياسية، وكان سلامة موسى أكثر الكتاب ميولاً إلى تاريخ الطبقة المتوسطة والعمالية وأطوارها وأسباب تفوقها.

من ذلك الحين تعصب علي سيف لكتابة سلامة موسى بمقدار تحيزه للقوات المسلحة وأدب الرواية من قبل..

وفي مطلع عام ١٩٦٢م كاد علي سيف العسكري أن يضيع في علي سيف الفنان، إذ امتزج بالفنانين الغنائيين، وتعصب للفن الغنائي وللعزف على العود، الذي كان أمهر عازفيه، حتى أن

علي سيف تعصب إلى جانب الفنان محمد الخميسي عندما دعي للتسجيل في الإذاعة بمناسبة عيد الجلوس، فاشتدت بين علي سيف ووكيل مدير الإذاعة علي الفضيل الخصومة، لأن علي سيف منع الخميسي أو حماه من سلطة الإذاعة.

وقيل في ذلك اليوم إن علي سيف هدد الفضيل بنسف الإذاعة بالقنابل، فتسببت هذه الحقيقة أو الوشاية في سجنه بسجن حجة الذي ظل فيه حتى إشراق الثورة.

* * *

كان لسجن علي سيف مردود نافع على الثورة، فعندما تمكن البدر من الفرار من صنعاء، أراد أن يلجأ إلى حجة كما فعل أبوه في ١٩٤٨م، وكما فعل البدر نفسه إبَّان الانقلاب على أبيه في ١٩٥٥م، حتى تبدَّت حجة الملجأ الحصين للبدر وأبيه، وعند اقتراب البدر من حجة، بعد ثورة سبتمبر، لاقاها أمنع من أن يدخلها، فقد أجاد علي سيف الخولاني ترتيبها من كل الجوانب، فما كاد البدر ومن معه يقتربون من حجة حتى أحذقت بهم النيران من عدة مواقع، فظل البدر يحوم حتى أخذه القنوط من حجة، لأن احتلالها أصبح مستحيلاً، وذلك بفضل ضابطين كانا سجينين هما علي سيف الخولاني وهاشم الحوثي.

تعين علي سيف قائداً لحجة لمدة شهور، ثم عاد إلى صنعاء إبَّان ظهور معارضة تزعمها محمد محمود الزبييري آخر ١٩٦٣م، ولكنه لم ينضم إليها وإنما انضم إلى تجمع آخر تسمى جمعية الشباب، غير أن تنظيم القوميين العرب نشر في قواعده وفي

الجماهير الغاية من تشكيل جمعية الشباب واتهمها بالرجعية أو بالموقف الوسط بين الجمهورية والملكية.

وكان علي سيف الخولاني أعنف أبناء الجمعية غيراً عليها، إذ كان يشتبك مع كل من يناوئ الجمعية أو يتهمها أو يرفض الانضمام إليها.

وكعادته انحصر في هذه الجمعية لا يتحدث إلا عن مزاياها ولا يتحرك إلا منها وإليها ولا يخاصم إلا معاديتها.

ولما فرّ مؤسسو الجمعية بزعامة إبراهيم بن علي الوزير نشأت جمعية أخرى غير سياسية وإنما جمعية فنية، فانقطع علي سيف عن الجمعية الأولى وتحمس للجمعية الفنية.. وإذا كل اهتمامه منصب على الجمعية الفنية وكأنّها كلّ عالمه...!!

* * *

ولما تبدّد الفنانون والتحقوا كموظفين في الإذاعة أو في مرافق أخرى سكت علي سيف غير معارض لشيء وغير متحمس لشيء.

حتى جاءت فكرة لقاء الملكيين والجمهوريين في حرض عام ١٩٦٦م، فتبدى ألد الجمهوريين على الملكيين.. وبدا ذلك اللقاء وكأنه ميدان قتال لا مائدة حوار!! وظل حديثه عن مؤتمر حرض وعن موقف الجمهوريين في مؤتمر حرض وعن تواطئ الجمهوريين وبعض الملكيين ضد الجمهورية والملكية.

وهكذا بدا مؤتمرياً لا ينتمي إلى غير المؤتمر ولا يصدر عن غيره...!! ولم ينس المؤتمر إلا بعد اندفاعه ثانياً في حياة الفنانين ورفاهية أصدقاء الفن، فلم يعد إلى جانب شيء أو ضد شيء لانغماسه في الحياة الفنية ورفاهيتها حتى آخر عام ١٩٦٦م.

هناك انبعث تيار وطني ضد العسكرية المصرية، فكان علي سيف شعلَةً حماسية في هذا الاتجاه، منطلقاً من الفن.. فلحن وغنّى أشهر أغنية إلى اليوم، والتي مطلعها (موطني يا منتهى الآمال يا كل الأماني... حسب من عنك تغابي أنك الشعب اليمني)..

فكاد علي سيف الفنان أن يطوي علي سيف العسكري السياسي والمتقف الروائي الثوري.

* * *

من عام ١٩٦٨م انفتح المجلس الوطني ثم مجلس الشورى، وكان علي سيف عضواً في المجلسين فانتقل حماسه من الفن إلى الانتخاب الشعبي ونزاهته وأحقّيته للعضوية في المجلسين وبالأخص مجلس الشورى الذي قام عن انتخاب صوري عكس المجلس الوطني الذي كانت عضويته بالتعيين.

ولما رأى المجلسين لا يحققان اسميهما كمجلسين تشريعيين كان ارتباطه بمجلس الشورى اسماً، فانتقل إلى جانب آخر هو الجانب الزراعي، بادئاً بما ورث من أراضٍ استصلحها.

هناك انحصار في الزراعة وفي إطار المزرعة فلا يتحدث إلا عن فضل الزراعة ولا يشيد إلا بالأرض الزراعية ولا يمتدح إلا العمل الزراعي.

وكان يُحسن وصف ما يحب حتى يفوق كل القائلين، لأنه كان يملك الكلمة، فكان حسن التحدث بليغ الخطاب.. فلم يتخل عن الجانب الأدبي الثقافي في أي موضع أراده.

إلى جانب هذا فإنه كان متقلب المزاج مزواجاً مطلقاً فما سبب هذا؟

* * *

لعل أهم أسباب تقلباته أنه كان قلقاً طامحاً، يريد تحقيق المستحيل، ويحاول تجاوز الممكن إلى المحال.. وعندما يفشل يتسلى بالفنون، بالعبادات، بالزواج والطلاق، وربما كان طامحاً فأنقصته وسائل نجاح طموحه فانعكس قلقه على كل حياته، فكان عسكرياً وفناناً ورفاهياً وأحياناً زاهداً يفوق الزهاد.

ففي شهور رمضان كان ينقطع للجامع وكأنه إبراهيم بن أدهم.. ثم يتحول عن الزهد إلى مجال فني أو تنظيمي أو زراعي، وكأن لا صلة بينه وبين الزهد كعاداته في الانحصر في المجال الذي يختاره حتى يدخل سواه، فينسى الأول نهائياً.

إنه نموذج راقٍ من الشخصيات القلقة، وثوري بعيد النظر لو تهيأت له الظروف أو لو اقتدر على صنع الظروف.

غير أن القلق الذي لازمه وعدد شخصيته حرمة تحقيق بروز شخصيته المرموقة، إذ كانت تتعدد شخصيته إلى شخصيات، فكان واحداً ينطوي على أفراد، وكان في كل حياته قوي الإخلاص للوطن لا ينتقل من مجال وطني، إلا إلى مجال يراه أنفع للوطن، حتى انتقل إلى رحاب الله الأوسع عام ١٩٧٩م تاركاً أثراً في كل مجرى من حياته البطولية المتعددة.

محمد عبدالولي

إن صناعة الكلمة تؤدي إلى صنع الأشياء، لهذا سبق الرغد الأدبي الثورات الصناعية والثورات الشعبية.

قبل قيام الثورة الفرنسية كانت تزدهم الدوائر الفرنسية بجيوش المثقفين من شعراء وقاصيين وروائيين ومؤرخين ونقاد.

وقبل الثورة الروسية كانت القمم الأدبية أول الأضواء في طريق الثورة، فكما كان في فرنسا عشرات من طراز فولتير وروسو وفولبير، كان في روسيا عشرات من وزن ديستوفسكي، تولوستوي، جيجول، تورجنيف.. وكان هؤلاء المبدعون ينخرون الوضع السياسي القيصري من حيث لا يدري القيصر وأعوانه.

لأن آداب هؤلاء العمالقة قوية الصلة بالشعب واهية الصلة بالقصور، لأن أولئك الأدباء في فرنسا وروسيا كانوا ينتزعون موضوعاتهم وأبطالهم من الشعب، وكان الملك الفرنسي والقيصر الروسي وحاشياتهما يتفرجون على المسرحيات الثورية للتسلي والاستمتاع الأدبي، ولا أحد من سادة القصور يعرف أن هذه المسرحيات توجب الثورة في باطن الشعب.

وكان المثقفون من أبناء الشعب هم الذين يفقهون أسرار تلك المسرحيات ومغازيها الثورية.

كذلك الأدب العربي بشقيه الشعري والروائي سبق الثورة العملية بتحسسه الثورة الإمكانية، كما دلت رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم، و(بين القصرين) و(قصر الشوق) و(السكرية) لنجيب محفوظ، إلى جانب شعر كمال عبدالحليم وعبد الحميد الديب.

بهذا دلت الاستقراءات أن الأدب سبق الثورة العملية، ولكنه لم يسبق الإمكان الثوري وإنما استلهم ذلك الإمكان الثوري وهو أحلام في العيون وهجسات في النفوس.

هكذا كل الآداب بما فيها الأدب اليمني، غير أن الأدب اليمني كان محدود القنوات، فكان الشعر فارس الميدان، فمن آخر الأربعينيات إلى الثورة توالى القصائد المبشرة بالثورة، وكان الشعب هو الذي يُلهم تلك القصائد ويستقبلها.

وكانت سائر الكتابات الأدبية محدودة، لا تتجاوز خمساً أو ستاً من المقالات الصحفية ولا تتجاوز ثلاث أقاصيص، وكانت القصة غير معهودة على المثقف اليمني العادي، لهذا قل إنتاجها، وتناولت المدة بين قصة وقصة.

نشر أحمد البراق في آخر الثلاثينات قصة بمجلة الحكمة بعنوان (اللسان الشقيقتان)، ومهد المسئولون في المجلة لتلك القصة بمقدمة تبررها، وتسميها قصة وضعية لا تشير إلى أحد من

الناس ولا تمس عرض أي مواطن، لأن البطالين من صنع التخيل، فإذا انطبق اسمهما على اثنين من الناس فهذا غير مقصود.

برهن هذا التقديم على غياب القصة عند قراء الأربعينيات وعلى ضعف مهارة القاص.. لأن القاص الماهر، ينتزع أبطاله من الأسامي المعروفة التي تنطبق على المئات من الناس، وبتغيير العلاقات بين الناس وبين الأبطال في القصة لا يتوهم أحد أنه معني بأحداث القصة ولو كان اسم البطل كاسم القارئ.

كانت قصة أحمد البراق أقرب إلى المقالة، وكانت تلك الباكورة الوحيدة للبراق كالمقالة القصصية عند المنفلوطي، إلا أن البراق لم يؤسس أسلوب القصة، إذ لم تتبع عمله قصة من نوع قصته ولا متفوقة عليها.

وفي آخر الخمسينيات أصدر صالح الدحان قصة طويلة بعنوان **(أنت شيعوي)**، وأصدر علي باذيب قصة بعنوان **(ممنوع الدخول)**، وكانت القصتان من المحاولات الفاشلة قصصياً لاعتمادهما على السرد غير المبطن وعلى الصوت الواحد وعلى الأحداث الدائرية التي لا تتحرك إلى الأمام ولا تلتفت إلى الخلف ولا تتعمق مكانها، بهذا ظل الميدان القصصي شاغراً لفارس القصة اليمينية محمد عبدالولي.

* * *

لم يظهر محمد عبد الولي في عالم القصة بضخوة الستينيات، كواعد على حد تعبير مصنفي رتب الأدب، وإنما تبدى عليمًا بفنه وبطرائق الفن القصصي وبشروط فنيته، فظهر ناضجاً من أول قصة نشرها.

من الجائز أنه طوى بعض الأوراق، إذ لا يمكن أن يتبدى على ذلك المستوى من أول تجارب الكتابة، ذلك لأن التجارب الأولى لكل أديب تكتب للتمزيق أو للطي، ولا ينشر الأديب الذي يعي مسئولية بواكير أعماله إلا عندما يتأكد أنه في مستوى الذين ينشرون ويقرأهم الآخرون.

فلا بد أن محمد عبد الولي أعدم قصصاً كثيرة، ثم نشر عندما رأى نفسه لائقاً للخروج تحت الأضواء، وهذا ليس صعباً فمن لازم الأديب المنتج أن يكون قارئاً فهامة قبل الإنتاج، لكي يقارن بين أعماله وبين أعمال الذين يقرأ لهم أو يقتفي آثارهم، وقد كانت الأعمال الروائية والقصصية وفيرة في المكتبات في مطلع الستينيات، سواء أكانت تلك الأعمال مؤلفة أو مترجمة.

وقد برهنت مجموعة محمد عبد الولي الأولى **(الأرض يا سلمى)** على أنه شديد التأثير بالأقاصيص المترجمة إلى العربية والتي قرأها أخيراً بلغتها.

فقد نشر في عامي ١٩٦١م، ١٩٦٢م نحو أربع قصص في صحف تعز و عدن وانضمت هذه القصص إلى مجموعته الأولى **(الأرض يا سلمى)** التي نزلت الأسواق عام ١٩٦٤م.

وكانت هذه المجموعة برهاناً فصيحا على تمكن محمد عبد الولي من كتابة القصة، وعلى أن المجموعة الأولى هي المجموعة الثانية، إذ لا تبدو في مجموعة (الأرض يا سلمى) لعثمة البادئ أو تعثر المحاول، وإنما تبدو محمد عبد الولي قاصاً يملك أمر الكلمة وأمر تصرفها وتوظيفها. لهذا عُرف محمد عبد الولي في بداية موسمه الفني بأنه صاحب (الأرض يا سلمى).

* * *

أشارت مجموعة محمد عبد الولي الأولى (الأرض يا سلمى) إلى تواريخ كتابتها، لأنها أشارت إلى ظواهر وأحداث سبقت الثورة وتعاملت مع الجو الإرهابي للثورة ومع تنامي إمكان الثورة، إذ تبدو الكاتب متذمراً كسائر المتذمرين رافضاً ذلك الواقع متبنياً نقيضه.

ولم يكن ذلك الرفض وجودياً تأففيّاً، وإنما كان رفضاً سياسياً لأنه تعامل مع الواقع الذي سبق الثورة لكي يغيره من داخله، لأن الرفض لذاته لا يحقق واقعاً بديلاً ولا يهز واقعاً قائماً.

فتبدى واقع آخر عهد الإمامة في مجموعة (الأرض يا سلمى) كفترة تبحث عن بديلها أو كشجرة صفراء تريد أن ترمي أوراقها وتستبدل بها أوراقاً خضراً.

بيد أن هذه المجموعة لا تنطوي على الدعوة إلى الثورة، بل أشارت إلى الثاني حتى يصل التمدخض ذروة نضجه.

ولعل محمد عبدالولي شم الحركات المعاكسة للثورة قبل انفجار الثورة وقبل تألب المعاكسات، كما في قصته التي تلت الأرض يا سلمى بعنوان **(وكانت جميلة)**، فالبطلة في هذه القصة هي الثورة في صورة حسناء ريفية كانت جميلة فأجهدا الكدح والعرق وريح الجبال وحرارة الأودية. وهذا رمز إلى حروب الثورة وانتهائها إلى التصالح بلا تجربة حربية أو سلمية.

وعلى رغم معاناتها فإنها ظلت جميلة لأنها كانت جميلة في الأصل الشعبي الذي رمز له القاص بالريف كرمز للنفاوة.. في هذه القصة إشارة إلى الحركات المعاكسة التي نالت من جمال الثورة ولكن لم تطمس كل معالم جمالها.

* * *

أما القصة صنعاء **(مدينة مفتوحة)** فأشارت إلى الاقتصاد الاستهلاكي الذي يعطل الإنتاج، وكانت كلمة (مفتوحة) إشارة إلى سياسة الانفتاح وإدانة لتلك السياسة.

أما قصته **(المجنون)** فهي تتناول مجنوناً حقيقياً، كان سجيناً إلى جانب محمد عبدالولي في سجن القلعة عام ١٩٦٥م واسمه (العماري) ومن هذه الصحبة أبدع محمد عبدالولي قصة بطلها المجنون وأحداثها من صنع العقل الثوري، فقد تبدى ذلك المجنون حكيماً يحسن الأحكام على الناس والأشياء ويستخلص من سر الوجود البشري ما يعز على الفلاسفة مناله.

كانت قصص مجموعة محمد عبدالولي تتطور بتطور الواقع العام وأحياناً تسبق أطواره، وكانت كل قصة من قصصه تنطوي على مشروع رواية أو قصة طويلة، وهذا ما حققه في روايته أو قصته الطويلة (يموتون غرباء).

تميز محمد عبدالولي في أقاصيصه بشعرية الجو وأدبية العبارة، وتماهي الواقع العام في الفن الخاص بالقصة، وكان المتتبعون ينتظرون محمد عبدالولي الروائي الكبير.

وفي غمرة انتظار الروائي العظيم فأجأت الروائي محمد عبدالولي المنية العجلى في حادث طائرة بحضرموت سنة ١٩٧٤م. فانتقل محمد عبدالولي من رحاب الإبداع المنفتح إلى الكوكب البعيد.

(١٦)

محمد الحمزي

كانت الطبقات الإقطاعية تملك الامتياز، لأنها كانت تملك القوة.. وكانت أغلب قواها تتكون من عبيد الأرض ومن قدرة أفراد بنيتها على الفروسية وعلى الرمي بالسهم.

ولما اخترعت الصناعة المدفع كان أغلب عُملاله من أبناء الصناعة، وعندما اتسع التناقض بين الإقطاعيين والصناعيين غلب المدفع الرماة بالسهم والقادرين على الفروسية، فأصبحت الخيول والسهم عاجزة أمام المدفع الذي صنعتها الطبقة التجارية.

وكان المدفع مجرد رمز إلى كثرة الطبقات الصناعية التي تنافس الإقطاعيين سادة القلاع على التفرد بالسيادة وارسنقراطية العيش.

واتسع نمو هذه الطبقة التي تسمى الوسطى، في كل العالم، ومنها صعدت الثورة في فرنسا وفي روسيا وقبلهما في بريطانيا ثم في الوطن العربي، فقل شكل نمو الطبقات الوسطى خطراً على الإقطاعيين، فعجزت قلاعهم عن حمايتهم، كما فشلت سهامهم وخيولهم أمام رمي المدفع وما تلاه من اختراع الأسلحة النارية، فقد أصبحت الطبقات الوسطى أقدر على امتلاك القوة،

لأنها كانت أملك للسوق، أما إذا عمت المجاعات فإن الطبقات
العمالية تشارك الطبقات الوسطى الثورة.

إذ تلى تنامي الطبقات الوسطى نمو الطبقات العمالية التي
صنعها سادة العمل بمقدار ما صنعت الطبقات العليا سادة العمل،
وهكذا توالى تكاثر الطبقات حتى انمحي الإقطاع وأصبح مجرد
تاريخ سيء.

هكذا تشابهت الظواهر في العالم بما فيه العالم الثالث، من
جاكرتا إلى طنجة ومن وهران إلى صنعاء.. فما أسهل قياس
الشعوب بالشعوب رغم الفروق الدقيقة.

* * *

عندما جاءت الحملة التركية الثانية إلى اليمن في النصف الأخير
من القرن التاسع عشر ميلادي، شكلت العسكرية التركية فيلقاً
من اليمن سمته الجندرية أي الجيش المحلي أو العسكري
المؤقت.

وكان غالبية الجندرية من أبناء الطبقات الوسطى والدنيا أو من
أبناء سوق الملح، كما كان يقول الارستقراطيون في اليمن،
الذين كانوا يصنفون الناس إلى صنفين: أبناء ناس وأبناء سوق،
كما كانوا يصنفون الفلاحين صنفاً ثالثاً: القبائل الجهلة، ومن
أبناء السوق تشكلت الجندرية.

وبرغم تشكيلها على يد الأتراك فإنها شكلت نواة الجيش
الوطني، إذ تحول عدد كبير من الجندرية إلى مقاتلين إلى جانب

الشعب ضد الأتراك، وبعد خروج الأتراك عام ١٩١٨م تبقى عدد من ضباط الأتراك في اليمن حسب طلبهم إلى المقام، فدربوا أفراد الجندرية على مختلف الأسلحة بما فيها المدفعية التي كانت تسمى الطَّبَشِيَّة، ثم شكلوا الجيش على الغرار التركي الذي كان قائماً في اليمن.

وأدت الأحداث التمردية في الداخل إلى تزايد هذه الأعداد، غير أن السلاح لم يكن موفوراً لكل قادر على استعماله، فاستورد المقام الأسلحة الإيطالية والبنادق الرومانية من عام ١٩٢٨م إلى آخر الأربعينيات، واستدعى تلاحق الأحداث تكاثر عدد الجيش الذي كان يُعزَّز بجيوش قبلية عند تمرد المناطق المحاربة كمنطقة حاشد والزرائق والمقاطرة..

وكان أغلب الذين تفوقوا في المرافق العسكرية هم أبناء الطبقات الوسطى والعمالية، وعندما انفتحت الكلية الحربية عام ١٩٤٠م كان المنتمون إليها من أبناء هذه الطبقات، فتكاثر عدد الضباط اليمنيين إلى جانب الضباط الذين انبعثوا إلى العراق في الثلاثينيات، والذين تسبَّب تخرجهم في فتح كلية حربية عام ١٩٤٠م لكي يعلموا غيرهم، إلى جانب بعثة عراقية برئاسة اسماعيل صفوت.

وبعد سفر البعثة العراقية عام ١٩٤٤م أصبح الضباط اليمنيون هم المعلمون في الكلية الحربية، التي اغلقت عام ١٩٤٨م بسبب الحركة التي قتل فيها الإمام يحيى وشارك فيها ضباط من أمثال

عبدالله السلال، حمود الجانفي، حسين عنبة، عبدالقادر أبو طالب، أحمد المروني، حسن العمري.

وكادت الكلية الحربية أن تصبح رمزاً للإجرام في نظر الإمام أحمد من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٥٨م. ولكن بعد أن تابعت الكلية تخريج الدفعات من عام ١٩٤٤م.

وكان من الذين تخرجوا في تلك السنة البطل محمد الحمزي الذي عُرف بعد الثورة بشهيد سينوان.

* * *

سبقت الإشارة إلى الجندرية الذين شكّلهم الأتراك في آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين، وقد تحولت الجندرية إلى جيش تحرير ضد الأتراك. وإلى جانب الجندرية افتتح الوالي التركي محمود نديم مدرسة المخابرات، التي نسميها الآن سلاح الإشارة، سنة ١٩٠٥م.

فكانت هذه المدرسة النواة الأولى لسلاح الإشارة، وقد تخرج منها عدد من الضباط من أمثال محمد الحيمي، محمد طه، وبطلنا محمد الحمزي، فقد ظلت مدرسة المخابرات (الإشارة اليوم) بمثابة كلية عسكرية، إذ كان ينتقل إليها طلاب المتوسطة أو الثانوية أو دار الإيتام.

وقد تخرج محمد الحمزي من المتوسطة إلى سلاح الإشارة عام ١٩٣٦م وبعد أن تخرج بأربع سنوات التحق بالكلية الحربية عام ١٩٤٠م.

وتخرج بعد أربع سنوات، فعمل في عدة مراكز: في الطويلة.. في حجة.. في صعدة.. وفي تعز.

وقلما عمل في صنعاء التي هي مسقط رأسه. وكان محمد الحمزي ميولاً إلى الكتب الثقافية وبالأخص الثقافة التاريخية، وكانت هذه الثقافة تملك كل وقته، وكان بطبيعته هادئاً قليل المشاركة في أحداث الأربعينيات وقليل الاختلاط برجالها، لهذا نجا من عواقب الأحداث التي وقع فيها بعض زملائه كالسجن قبل ١٩٤٨م وكسجن نافع بعد ١٩٤٨م.

وعلى أنه كان موصول الوجدان بزملائه، إلا أنه كان لا يرى رأيهم في صنع الانقلابات، لأنه رآها سابقة لتطور الشعب، ولا يمكن نجاح أي عمل انقلابي إلا إذا كان استجابة للرأي العام، فكما تجنب الحمزي التورط في انقلاب ١٩٤٨م تجنب التورط في انقلاب ١٩٥٥م الذي قاده أحمد الثلاثي، مع أن الحمزي كان صديقاً شخصياً لأحمد الثلاثي، كما كان صديقاً شخصياً لبعض الذين شاركوا في انقلاب ١٩٤٨م.

وكانت سلامته من عواقب الانقلابيين، لا تثير حوله شبهة، لأنه كان يتجنب التورط، عن فهم للشعب الذي هو من غمار ملايينه، وقد ساعده عمله العسكري على معرفة الشعب في أكثر من منطقة.

على أن محمد الحمزي كان عسكرياً طيعاً للأوامر، وبالأخص إذا كانت تلك الأعمال وطنية الوسيلة والغاية، فقد قاتل في البيضاء أيام الحملات البريطانية وتمارض عندما أمر الإمام

أحمد بإنفاذ حملة عسكرية على خولان عام ١٩٦١م.. لأنها ضد جماعة من الشعب.

وكان الحمزي يتجنب أي عمل عسكري ضد الشعب، مهما كانت الأوامر، إلا أنه لم يجاهر برأيه، وإنما كان يدّعي المرض ويعكف في بيته.. ولما قامت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر اتقد الحمزي بطولة وفدائية، وكان من الضباط الأوائل الذين تحملوا مسؤولية قيادية للدفاع عن الثورة.

* * *

بعد السادس والعشرين من سبتمبر، تميز محمد الحمزي ببعد النظر.. لقد كان قبل الثورة يأبى أن يشارك في حملة ضد الشعب، أما بعد الثورة فقد عرف أن الشعب لا يحارب الثورة لأنه رحب بها من فور قيامها، ولم يحدث تمرد في المناطق الحدودية إلا بعد أن امتدت يد التدخل بالأموال والأسلحة.

هناك رأى الحمزي أنه يحارب أتباع الاستعمار أو المتحرّكين بإرادته.. وكانت مناطق شمال الشمال مشهورة بأنها قواعد الإمامة وأنها ستحاول ردّ الأمس، غير أن الحمزي تأكد أن التغير الزمني قد ألغى مفاهيم قديمة وأنبت مفاهيم جديدة، ولم تكن صعدة إلا جزءاً من الشعب الذي أراد الثورة.. وليست تلك الأحداث التي شبت هناك إلا من فعل التدخل الأجنبي.

* * *

وكان محمد الحمزي قائد صعدة بعد الثورة، فدافع عن المنطقة دفاع الأبطال، ولما اشتدت الهجمات ولم يصل إليه المدد الكافي، نتيجة صعوبة الطريق ونتيجة كثرة المشاكل في قيادة الثورة، قاتل الحمزي بكل ما لديه من رجال وسلاح، غير أن المهاجمين كانوا يبلغون الآلاف وكان محمد الحمزي في قلعة سنوان مع مجموعة صغيرة من الجنود والقبائل، فداهمهم جيش من آلاف بقيادة محاربين مرتزقة من أوروبا، فاستمات الحمزي ومن معه حتى شعروا باليأس، وهناك تبدت حنكة الحمزي العسكرية، فعندما تأكد من سقوط قلعة سنوان وكانت مليئة بالحبوب والذخائر والأسلحة، أحرق القلعة بالنفط لكي لا يستفيد الأعداء من مخزونات القلعة فاحترقت بمن فيها.. وكان محمد الحمزي من المحترقين.. وبهذا ضرب أعلى مثل في الفدائية وفي الحكمة العسكرية، فانتقل من قلعة سنوان مشبوحاً بتأجج الثورة إلى رحاب الله.

(١٧)

علي سعد الربيعي

يختلف الدارسون حول أبناء الحضارة البائدة، هل يرثون الأخلاق الحضارية التي كانت قوية، أم أنهم يرثون الانحلال الذي وقعت فيه الحضارة، ولا يرثون أخلاق الحضارة، لأن الحضارة المنحلة لا تُعقب إلا الانحلال.

وهذا الخلاف لاختلاف النظرتين إلى أثر الحضارة وإلى زمن شبابها، فالذين يرون انحلال أبناء الحضارة بانحلالها يرون تراخي أبنائها سبب انحلالها.. أما الذين يرون أن الأبناء يرثون الأخلاق الحضارية، فيعتبرون أن انقراض الحضارة لا يتسبب في بقاء إرثها الحي في الأعقاب، لأن الفترة الزمنية التي كونت الحضارة تقبل الامتداد أخلاقياً ولو باد العمران الحضاري.

غير أن هناك اتفاقاً على أن البدو إذا دخلوا الحضارة كانوا أعظم بناتها، ويستدل هؤلاء على حضارة العرب بعد الإسلام، كما يستشهدون بإبداع الجرمانيين الذين أبدعوا الحضارة الألمانية، بفضل انتقالهم من القبلية إلى صنع الحضارة.. ولكن هناك حضارات لم تنقرض كلياً فخلفت أبناء حضاريين، فانهيار سد مارب تسبب في الجفاف الزراعي، ولم يتسبب في انقراض الحضارة العمرانية في سائر الأماكن اليمنية، إذ بقيت القلاع ومئات السدود حتى الغزو الحبشي لليمن.

هناك تواصل انقراض الحضارة اليمنية بفعل عدوان خارجي سببه الضعف السياسي في الداخل.. ولكن لم يتسبب ذلك الغزو في محو الحضارة، فقد ظلت متواصلة إلى الآن في عدة ظواهر، كالحياة المدنية، والحياة الزراعية التي هي أساس الحضارات.

من هنا تؤكد الشواهد على تواصل الأخلاق الحضارية بتواصل العمران الحضاري الذي ظل ممتد الأصول والفروع، بدليل أن أبناء اليمن نقلوا خبرتهم الحضارية إلى الشعوب الأخرى، فخططوا المدائن في مصر والشام والعراق، إذ خطط معاوية بن حديج مدينة القسطنطينية بمصر، وخطط عمرو بن دُهَيْم الكوفة والبصرة اللتين تسمتا بالمصريين في العراق، وخطط شربل المرادي مدينة حمص بالشام.

وهذا أنصع الشواهد على استمرار الحضارة فوق أرض اليمن وفي أخلاق بنبيها الذين نقلوا خبرتها إلى الخارج كما توارثوا قيمها في الوطن والمهجر.

ولعل حريب من أهم المعالم الحضارية، وإن احترفت هي والمناطق التي حولها الرحيل من بداية العصور الوسطى، فاعتبرهم البعض لاحقين بالبدو الرُّحْل.

صحيح أن هناك مناطق اشتهرت بالبدواة وقطنها الرُّحْل، ولكن مسألة التخصص بالرحيل غير ملازمة لأي منطقة.

إذ كان اليمنيون يحترفون الرحيل وراء الإبل في المواسم غير الزراعية، وكانوا يجمعون بين زرع الأرض وقيادة القوافل من مدينة إلى مدينة ومن اليمن إلى أصقاع شبه الجزيرة.. إلا أن هناك من استكثر من الرحيل ووجده أنفع من الزراعة، كسكان المناطق الشمالية الشرقية الذين عُرفوا بجلب الأحطاب والملح والفحم إلى العاصمة صنعاء وإلى المدائن الإقليمية، كما تزينوا بالشهامة العريقة والشجاعة النادرة إلى قبل ٣٠ عاماً من هذا القرن.

وقد أعطت هذه الحياة الرحيلية أبناءها قوة الصبر وعظمة الشجاعة، لأنهم كانوا يقطعون المسافات بين الوحوش وفي عهود اضطراب الأمن، ويتمكنون من حماية أنفسهم وقوافلهم، ويتغلبون على الوحوش الضارية في أعظم أعرنتها، وقد ظلت هذه الشجاعة متواصلة في هؤلاء الرحل وفي الذين كانوا يحترفون الزراعة في حريب ومأرب والجوف.

وقد اشتهر أفاذاً بالشجاعة السياسية من أمثال علي ناصر القردعي، وأحمد ناصر القردعي اللذين خاضا أعنف قتال ضد الإنجليز في شبوة وضد الأتراك في البيضاء وكان لهما دور بارز في حركة ١٩٤٨م.

وفي عهد الثورة تجلت بطولة أبناء المنطقة الشمالية الشرقية في المعسكرين، أما الشباب من أبناء تلك المنطقة فقد مالوا إلى التعليم متجاوزين تقاليد المنطقة، وتميز أكثرهم بنجابة التلمذة من أمثال بطلنا الطيار علي سعد الربيعي.

* * *

نشأ علي سعد الربيعي في منطقة حريب في ظل الأربعينيات، التي كانت بداية التوتر السياسي وبداية التمهض الاجتماعي، فتحرك صباه في آخر عهود الاطمئنان وفي بداية زمن القلق.

وما إن وصل آخر الصبا حتى التحق بالمدارس الابتدائية في السعودية، وتبدى نجيباً ذكياً في كل مراحل التعليم، ولأنه كان حاد الذهن متطلباً البرهان، كان يضايق أساتذته بالتساؤل عن سبب كل شيء، وعن غاية كل ما يقولون.. فما إن يقول الأستاذ المسألة حتى يسأل الربيعي عن السبب وعن الغاية، مما أدى إلى فصله من الثانوية، فعاد إلى صنعاء وأتم المرحلة الأخيرة من الثانوية، وبعد أن بلغ هذه المرحلة تعددت أمامه الخيارات: هل يتابع التعليم فيبحث عن بعثة لأي جامعة؟ أم يكتفي بالثانوية العامة ويلتحق بأي وظيفة؟ وكان المجال المفتوح يومذاك في عام ١٩٦٣م هو المجال العسكري، فالتحق بكلية الطيران في القاهرة.

* * *

كالعادة كان علي سعد الربيعي في كلية الطيران بالقاهرة كثير التساؤل التماساً للفائدة، إلى أن سماه بعض الأساتذة المصريين بالشكاك، لأنه يبحث عن برهان ما سمع وما قرأ.

وهذه طبيعة الحضاري الذي تنبض فيه أسرار الحضارة وحب البحث، أو هي طبيعة الزراعي الذي يدخل المدينة فينقلب على

الدهشة بالتساؤل عمّا وراء كل ظاهرة، وما حقيقة كل مرئي، لأن لكل شيء سرّاً توحى به ظواهره وتغريه بالبحث عن العلل والمعلومات.

لقد أوصل الربيعي ذكاؤه إلى مشاكل دراسية لا يريد أن يقع فيها وإنما أوقعته فيها محاولة التمهيص، وبالأخص أن العسكرية تشترط التنفيذ بلا تساؤل والقيام بالمهمة بدون اعتراض.

ونتيجة للشكوك التي اخلتجت في نفوس العسكريين المصريين في اليمن يومذاك، شك أساتذة كلية الطيران في حزبية الربيعي وبحثوا عن تصنيفها وانتهى الأمر بفصله بعد شهر.

* * *

وجد علي سعد الربيعي في الطيران بغيته المنشودة، لأن فيها التحليق والدنو من السماء، هذا من الناحية الرومانتيكية.. وأما من الناحية الحربية فقد تخصص علي سعد الربيعي في الطائرة المقاتلة مفضلاً إياها على الطائرة الهجومية أو الناقلة.

ولعل ميوله إلى الطائرة المقاتلة يرجع إلى المرحلة التي كانت تتطلب هذا النوع من الطائرات، لأن الحرب مازالت على أشدها، ولم تنفع فيها وفرة الطائرات المصرية.

غير أن علي سعد الربيعي أكد أن المسألة ترجع إلى حسن الاستخدام أو سوءه، وقد تساءل في الاتحاد السوفيتي عن عدم جدوى الطائرات المصرية في حرب اليمن، وشفى نفسه الجواب الذي تلقاه من الأستاذ السوفيتي حين قال له إن "أهمية الطائرات

ترجع إلى عامل نفسي، لأن القصف من فوق رؤوس الأعداء يشعرهم بقوة مهاجمهم من فوق متناولهم" وهذا ما تمسك به الربيعي فقد كان يقول أن المشاة هم القوة الحاسمة لأنهم الذين يحتلون المواقع التي هاجمتها الطائرات والمدفعية.. وبهذا كان الربيعي يعرف علم العسكرية نفسياً واجتماعياً، مع أنه كان يكره الحرب ما لم تبررها غايات شعبية وانتصارات مبدئية، وكان يردد المقولة الشهيرة أن "الحرب أشلاء ودماء وإنما النصر هو الذي يجعلها جميلة".

* * *

تخرج علي سعد الربيعي من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٦م، ولم يكد ينشق روائح الوطن حتى استدعاه الواجب القتالي، إذ اشتدت الهجمات الرجعية على صنعاء في آخر عام ١٩٧٧م واقتربت أخطار الحرب من أبواب صنعاء، فقام علي سعد الربيعي بمهمات شاقة، إذ رأى أن انتظار الهجوم لا يمكنه من تحقيق أهدافه، فالأفضل ضرب الأعداء من أماكن تجمعهم قبل أن يحكموا طوق الحصار على صنعاء، فوجه ضرباته إلى التجمعات في خولان وفي بني حشيش وفي مواقع تجمع الأعداء أينما كانوا، وكان يحاول أن يسدد ضرباته إلى التجمعات الكبيرة، وعندما كانت تتفرق الجموع كان يطارد المجموعات الصغيرة والأفراد، فيضطر إلى الانخفاض لكي يصيب مرماءه، فتسببت هذه الجراءة في إسقاط طائرته في شهر يناير ١٩٧٨م، وبهذا سجل أعظم نصر، لأنه خطب الشهادة وتزوج منية الأبطال، بعد زواجه بشهور.

علي عبدالله السمة

كما إن الناس يشبون ويشيخون فإن الأزمنة تشب وتشيخ حتى يكاد أن يتعطل امتداد الفترة حرفياً إلى التي تليها.. قد تشبه الفترات بعضها بعضاً، ولكن التشابه غير المماثلة، التشابه في وجهه أو وجوه.

ذلك لأن التكرار الكلي غير وارد في مسيرة الزمن وفي تلاحق أجيال البشر، ولعل عصرنا يملك مئات الأمثال على هذا، فهو أعظم العصور، لأنه حقق في عقود من السنين ما عجزت عنه مئات العصور، وهو أسوأ العصور لما تتابعت فيه من كوارث كحربين عالميتين، كحروب إقليمية، كإقتتال طائفي.

ومع هذا فإن معاييه من مزاياه، وقد لاحظنا في بلادنا اختلاف فترة عن التي تليها.. غايرت العشرينيات سوابقها بمقدار ما غاير القرن العشرون القرن التاسع عشر.

وغايرت الثلاثينيات والأربعينيات كل العشرينيات، وتفجر التغير النسبي في الخمسينيات.

دل على هذه التغيرات: التطور الثقافي، نشوء التنظيمات، تعدد الصحف، قهر الفن الغنائي لقيود المنع، فمن بداية الخمسينيات تجاوز الفن الغنائي (موضوع حديثنا) كل الموانع، ولم ينل

حرية شيوخه بمرسوم من المقام، وإنما حققها بجرأته،
وبتغاضي المقام عن فن الغناء وشيوخه بعد أن كان ممنوعاً
بالقوانين الإمامية والعرف الاجتماعي.

كان الناس في صنعاء الثلاثينيات والأربعينيات يشاهدون
المزامير المعلقة على باب المقام من حين إلى حين، لأن زَمَراً
نفخ زمماره بالقرب من سوق صنعاء، فضُبط متلبساً، فذهب إلى
السجن وتعلق زمماره على باب المقام.

وكان المرحوم زيد بن علي الديلمي يستنكر هذا التعسف على
المزامير، ويقول: ما لهذا المزار معلق، وأمه في العرضي
تصيح كما تشاء..؟! (يشير إلى موسيقى الجيش).

وكان الناس يحبذون قمع الغناء سواء على الأعواد أو على
المزامير أو على الطبول أو على أي آلة طرب، فكما كان يعلق
المزار ويُضبط الزامر، كان الناس يتنصتون على جيرانهم،
فيرفعون قضية ضد من في بيته طرب، إما مسجل أو سماعي،
ذلك لأن المنع الرسمي لا يحقق غرضه إلا إذا ترافق مع عرف
اجتماعي.

غير أن الفترات الزمنية تشيخ كما سبقت الإشارة، فقد تراخى
التشدد والمنع الرسمي من آخر الأربعينيات، وبدأت حرية الفن
تتصاعد شيئاً فشيئاً، فوصلت الفونوغرافات بطريقة أكثر بدون
منع وبدون ترخيص وإنما كان هناك تغاض عنها وعن جالبيها.

كذلك المجالس فإنها أخذت تغني، حيث يمكن وجود الفنان في المناسبات وغير المناسبات.

ساعد على تجاوز الفن موانعه انفتاح إذاعة في عدن سنة ١٩٥٣م وانفتاح إذاعة صنعاء بعدها بثلاث سنوات.. وبهذا كشف الفن عن وجهه، بل بدأ المطربون المتخفون يسجلون للإذاعة في عدن ثم صنعاء.. كما يجري المذيعون حوارات مع الفنانين ويستفسرون عن تجاربهم.

وفي بحر الخمسينيات زمن بداية حرية الفن الغنائي، ظهر علي عبدالله السمة.

* * *

ظهر علي عبدالله السمة في آخر الخمسينيات كفنان يتمتع ببيئة فنية، إذ كان أهله وعُشراؤهم من مجيدي الفن ومن متذوقيه.

غير أن آل السمة كانوا يتخفون بالفن الغنائي لنفوسهم أو لخاصة الأصدقاء، ولم يجاهر في آخر الخمسينيات إلاً علي عبدالله الذي كان يستجيب كل دعوة من بيت أفراح أو من جلسات إخوان.

ولعل الذي رشحه لسعة العلاقات، هو ميوله الفطري إلى الثقافة وبالأخص الثقافة الشعرية، وذلك بفضل تعليمه في الابتدائية وبالأخص المدرسة المتوسطة، فقد كان أساتذتها من الذين ينتجون أجود الأشعار وأحمس الأناشيد، ولما تخرج علي عبدالله السمة من المتوسطة توظف ككاتب في مقيدة السيارات.

وكان ذلك العمل لا يأخذ منه وقتاً طويلاً ولا يشغل منه جهداً، فكان يندندن حتى في مكتب العمل، وكان أصدقاؤه يلاحظون عليه كثرة التغني أو التمرين على التغني.

ولعل هذا النزوع يرجع إلى تعليمه أولاً، ثم إلى ظهور مجددين في فن الغناء اليمني من أمثال اسكندر ثابت وأحمد قاسم، غير أن السمة لم يسجل للإذاعة إلا بعد ثورة السادس والعشرين من سبتمبر، إذ أنشد في أول حفل بسينما بلقيس أنشودة **(جمهورية)** و**(ثورة الشعب الأبى)**.

وتبدى قوي الأداء، قوي التأثير، وكانت تلك الفترة أناشيديّة لتأجج الحماس في الجماهير وفي الفنان، فكان يتلاقى التيار بالتيار.

فحقق علي السمة في عام ١٩٦٣م شهرة أناشيديّة، وفي عام ١٩٦٤م تحمس لإقامة جمعية فنية وكان أبرز الدعاة إليها والعاملين فيها، وإن كانت فكرة تلك الجمعية من أفكار الدكتور سعيد الشيباني الذي كتب دستور الجمعية ونظم الانتخاب بين الفنانين.. وكان سعيد يومذاك من أشهر شعراء الأنشودة الثورية، وقد وجد في علي السمة صوتاً مؤدياً مؤثراً.

وكان أهم وسائل السمة الحماس الثوري، إذ كان صوته أقرب إلى البحة منه إلى اللبونة، وكان يحتاج إلى أمد طويل لتليين مفاصل صوته وترطيب خامته.

وقد توسم فيه الدكتور سعيد الشيباني مستقبلاً فنياً.. لأنه كان صاحب آراء في الفن الغنائي تفوق فنه الغنائي في تلك الفترة، قال السمة في كلمة في افتتاح الجمعية أن فنائي الستينيات يرددون ما غناه الأوائل من أمثال إبراهيم الماس والقعطي وعلي أبو بكر، فدعا السمة إلى أغان جديدة من نتاج الفترة الثورية، ومن إيقاع زمنها المشرق.. وبهذا يمكن حماية الفنان على حد رأيه.. فقد كان الفنانون يومذاك يشجعون حول النص الفني، فيغني الخميسي ما غنى السنيدار، ويغني عبدالكريم علي قاسم ما غنى السمة.

وأثار النص مشكلة فنية مع أن هذه ليست مشكلة!! فمن الجائز أن يغني النص أكثر من فنان وبهذا يتجدد النص بتجدد الصوت وباختلاف أداء الفنان الثاني عن الفنان الأول.

وقد دلت التجارب على تجدد النص باختلاف أكثر من أداء، إذ جددت فيروز في الستينيات أغنية (يا جارة الوادي) التي غناها محمد عبدالوهاب في مطلع الثلاثينيات، وأمثال هذا كثير.

غير أن الأزمة التي عانتها الجمعية الفنية اليمنية تكمن في واحدة النص وتمائل الأداء عند الفنانين، لأنهم كانوا يترسمون فنائي الأربعينيات والثلاثينيات، فدعا علي السمة إلى حماية نص كل فنان، ومن انتزع نصاً غناه فنان سابق يتحمل عقوبة مالية وحرماناً من الإذاعة مدة ستة أشهر.

لقد أبدى علي السمة رأياً صائباً بالنسبة لأزمة ذلك الحين، إذ تصور أن تشابه الأداء يرجع إلى واحدة النص عند أكثر من

فنان، مع أن الأزمة كانت ترجع إلى اللحن وإلى التقليد الصوتي، لهذا حاول علي السمة إدخال ثورة جديدة على اللحن.

* * *

ساعدت علي السمة قراءاته الشعرية على اختيار نصوص من الشعر القديم والمعاصر أجاد تلحينها، كما حقق إجادة نسبية في أدائه الصوتي، فغنى لابن الرُّقاق **(يا من بساحات الصدود أحلني)**، وغنى للبهاء زهير **(تعيش أنت وتبقى)**، كما غنى لعباس المطاع، **(نظرة منك يا جميل المحيا)** وتفرد بإجادة تلحين الشعر الفصيح، إذ كان يغني غالبية الفنانين من شعر العامي قديمه وحديثه كأشعار شرف الدين والأنسي والقارة وفايح.

أما علي السمة فوجد في الشعر المتوسط الإجادة أخصب لتجاربه، وكان صوته متناسباً مع ذلك الشعر الذي يعتمد على الأشرطة وعلى تقابل النغم، لأن علي السمة قصير الأنفاس إلى حد ما، فكان صوته العريض أنسب تناغماً مع شعر بحر الكامل وبحر الخفيف ومجزوء الرَّمْل والبسيط.

ولما لاحظ علي السمة ضآلة تفوقه الصوتي اعتمد على الأنغام المدونة في كتاب الأغاني، فغنى **(يا من بساحات الصدود)** من الثقيل الأول. وغنى **(نظرة منك يا جميل المحيا)** على الثقيل الثاني، وغنى **(الشوق أعياني)** على الطريقة الشاذلية. وغنى **(الباله)** على المتواتر، وربما كان يبتدع هذا اللحن من إيقاع القصيدة، إذ لا يمكن لمثله أن يحل رموز الأصفهاني في كتاب

(الأغاني) لأن ذلك الكتاب كان صعب الهضم، كثير الاستطراء، لا يقتدر على قراءته إلا الباحثون عن المراجع الأدبية والغنائية.

وربما استعان علي السمة بكتاب (أنغام من الشرق) الذي صنف الأغاني على حسب المقامات، غير أن علي السمة لم يصدر عن المقامات إلا في أغنية (فوق الجبل).

إذ نحا فيها منحى الموشح المشرقي، كما نحا في قصيدة (يا قافلة) ناحية المقام الحمصي الذي فصله كتاب (أنغام من الشرق)

لعل علي السمة أكثر الفنانين ثقافة وانتفاعاً بالثقافة، فقد كان يلحن أغانياته من سيكولوجية كلماتها، ومن تناغم أشعارها، ومن تجاوب المفردات مع أخواتها، حتى أنه كان يؤلف بعض أغانيه على إيقاع صوته، فيجيد لحنها لتعامله مع كلماتها كتابةً.

ومن الجميل أن السمة ظل يبحث عن تحقيق الإجازة الأعلى ورغم ما حقق من إجازة جددت الألحان وجددت مقاطع كثيرة من الأداء.

وفي عام ١٩٧٤م أراد أن يصل إلى العلم الفني فالتحق بالأكاديمية الفنية في موسكو وقضى فيها عامين.

ولما تخرج عام ١٩٧٦م تجددت ألحانه وتجدد أدأؤه، إلا أن صوته كان عريض الذبذبات وكان يحتاج إلى ملحن يهتدي إلى منطقة الإبداع في صوته، وإلى مواطن الإجازة في نبرات صوته وخيوط مخارجه، لأن المبدعين غنائياً تفوقوا بفضل

ملحنين يعرفون أوتار الأصوات، ويفقهون اللغة الداخلية للصوت، فيركزون عليها حتى يمتلكها الفنان المؤدي.

مهما كان تحقيق الفنان علي السمة في الفن الغنائي فإنه قد أحدث تحولاً كبيراً في اللحن د، وتحولاً نسبياً في الأداء، وتميز بشكل غنائي خاص لا يشاركه فيه غيره.

غير أنه لم يصل إلى تحقيق مدرسة غنائية، كما لم يصل أي فنان إلى أن يكون صاحب مدرسة، **فالفن الغنائي اليمني كله مدرسة واحدة وإن اختلفت أشكالها وجوانبها.**

المهم أن السمة لم يردد ما غنى الآخرون وإنما بحث عن صوته الخاص، وعن اللحن المنسجم مع صوته، فأبدع نحو ستين أغنية وأنشودة مسجلة، إلى جانب أغان وأناشيد في مختلف مراحل فنه لم يتناولها تسجيل، وكان دائم المتابعة وراء الجديد والتجدد وبالأخص في السنوات الأولى من الثمانينات، فقد حاول أن ينقطع لدراسة العلم الفني وأن يحقق تحولاً شاملاً في فن الأغنية والأنشودة.. غير أن الموت لم يمهلّه إذ أدركته المنية في حادثة شجار في ربيع ١٩٨٤م.

محمد مظهر زيد

كان الحسن والبدر في مطلع الخمسينيات قطبي النزاع على الخلافة، فكان يفد الوافدون لبيعة البدر ويفد غيرهم لبيعة الحسن، وكان بعضهم يأتون أفراداً حاملين توافيع أصحابهم لبيعة هذا أو ذاك.

وكان البعض يبايع البدر والحسن في يوم واحد.

وكان المبايعون والمبايعات يجهلون أخطر شيء، وهو الشعب الرافض لكلي القطبيين.

غير أن المتهافتين على نقود هذا أو ذاك ظلوا يواصلون ألاعيبهم، فظن الحسن أن المنطقة التي كانوا يسمونها (القبلة) هي مركزه الأساسي، فكانت تمتد هذه المنطقة من عمران إلى صعدة إلى حجة.

وكان البدر يرى أتباعه في الشباب وطلاب المدارس وضباط الجيش، فاهتدى الحسن إلى وسيلة ينال بها من شعبية في صنعاء تغالب شعبية البدر، فابتنى مدرسة إلى جانب دار العلوم تضاهي الثانوية في منهجها إلى جانب زيادة في العلوم الدينية.

واختار الحسن طلاب المدرسة التي سماها تحضيرية، من مناطق (القبلة) كما كانت تسمى، فاستقدم الطلاب من شهارة وصعدة وحوث وحجة وكشر وسائر تلك الأصقاع.

وكان من أوائل الطلاب الذين انضموا إلى المدرسة التحضيرية محمد مطهر زيد.

* * *

التحق محمد مطهر زيد بالمدرسة التحضيرية عام ١٩٥٤م وكان مؤهله الدراسي يحقق دخوله دار العلوم، لأنه قد بدأ الدراسة بالمدرسة العلمية بوشحة.

وكان معنى العلمية والعلم يطلق على كتب الفقه وأصوله والفرائض والنحو كآلة لفهم الكتاب والسنة، لهذا سمي الحسن مدرسة التحضيرية، لأنه همس في بعض الجلسات الخاصة أنه يحضر أولئك الطلاب للدراسة في الخارج، وكان يسمى أولئك الطلاب (زنجبيل بغباره) أي فطريون لا يعرفون ترف المدينة ولا مشاكل السياسة، ولا الاختلاط بالذين كان يسميهم العصريين، وكان أولئك الطلاب مختارين من أبناء البيوت الشهيرة بالعلم وبالقضاء الشرعي وإدارة المناطق أو الذين ينتمون إلى هذا القبيل من تلك الطبقة، كما تدل الأسماء: علي قاسم المؤيد، يحيى المتوكل، أحمد المتوكل، أحمد الناصر، حسين الزين، محمد مطهر زيد، يحيى جحاف، عبدالوهاب جحاف.

غير أن الأمور تراخت فدخل تلك المدرسة أفراد من أبناء الشعب، عن طريق المراجعات والوساطات والإلحاح في الطلب وإن كان أغلب الطلاب من أبناء البيوت الموثوقين حسناً.

ولم يكد يمر عامان، حتى أصبح الفطريون أكثر تطلعاً إلى المعاصرة وأكثر حماساً للوطنية وأشد انغماساً بدوائر المثقفين والمتطلعين.

وهذه مسألة بديهية، فالقروي أكثر انغماساً في حياة المدينة لاختلافها عن حياة القرية ولأنها سرٌ مُكتشف يغري بالدخول إليه.

لهذا أصبح طلاب التحضيرية غير من كانوا قبل سنة، ساعد على هذا تدفق العصر من جهة وإبعاد الحسن من اليمن بأمر الإمام أحمد من جهة أخرى.

فظلت المدرسة التحضيرية نقطة وسط بين دارالعلوم والثانوية وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات.

في عام ١٩٥٨م انفتحت الكلية الحربية والتحق بها أغلب طلاب التحضيرية والثانوية، لأن الوعد بابتعائهم إلى الخارج قد خاب بإقصاء صاحبه إلى نيويورك، لكن سادت فكرة أخرى هي اختيار العناصر الموالية للكلية الحربية، مع أن تلك الفترة قد شقت جيل الأبناء عن الآباء.

وقد عانى بطلنا محمد مطهر زيد مضائق عديدة في طريق التحاقه بالكلية الحربية، لأنه كان قصير القامة فرأى العسكريون عدم لياقته ثم انتصر على المكاره بالإلحاح والشفاعة.

ولما أصبح من طلاب الحربية أبدى تفوقاً ملحوظاً.

* * *

كانت الكلية الحربية تتكون من ثلاث سرايا لكل سرية قائد، وكان محمد مطهر القائد الأعلى للسرايا الثلاث لوفرة استيعابه للدروس العسكرية ودرايته بالانضباط العسكري. لأن الفقيه الذي تحت ردائه قد حوَّله إلى رجل عسكري شامخ القلب على قصر قامته.

وفي عام ١٩٦١م تخرجت الدفعة الأولى التي منها محمد مطهر زيد وبعد تخرج تلك الدفعة وجدت نفسها بلا رتب عسكرية وبلا مرتب، فانتدب الخريجون علي عبدالمغني ومطهر زيد إلى تعز لمراجعة الإمام في إعطاء الرتب.

ورجع محمد مطهر بلا جدوى، وظل علي عبدالمغني بتعز قتلاً للوقت، فنال محمد مطهر رتبة أركان حرب في الكلية الحربية التي كان يديرها عبدالله جزيلان، وجمع بين هذا العمل وبين التعليم في مدرسة الأسلحة.

وفي تلك الفترة انبثق مشروع تنظيم الضباط الأحرار، فاستدعى محمد مطهر زميله علي عبدالمغني من تعز للمشاركة في ذلك التجمع العسكري.

وكان محمد مطهر تحريكاً لا يقف، فتمكن من مد التنظيم إلى المعسكرات في تعز والحديدة وحجة، وكان هذا أول تنظيم ضباطي.. وإن كانت صفة التنظيم مجازاً عليه، إذ لم يكن لذلك التنظيم برنامج مكتوب ولا رئيس ولا دليل نظري للمستقبل، فكان أشبه بتجمع ضباط من كل المعسكرات، غير أنه كان في حينه عملاً خطيراً، لأن ذلك التجمع من الضباط، قد أصر على تفجير ثورة، وانكشف هذا السر للمقام، فأبعد الموالون من الضباط التنظيميين عن الأسلحة، وأغلقوا على الدبابات بلا مفاتيح ولا ذخائر.

فتألفت تنظيم الضباط إلى أعضاء الاتحاد اليمني من التجار في تعز، فأمدوهم بالأموال لشراء القذائف عندما يحين أوان استعمالها، غير أن تمرد خولان ألجأ المقام إلى خروج الدبابات من مخابئها واستيلاء بعض الضباط على قيادتها، بل قاد بعضهم الحملة إلى خولان.

وكانت تفد الذخائر من الخارج إلى أوكار سرية يعرفها الضباط الثوار، وكان القصر الإمامي يسرع إلى السقوط، وبالأخص بعد إصابة الإمام أحمد في مستشفى الحديدة عام ١٩٦١م، فأبدى الضباط ولاءً للبدر، فوثق بالكثير منهم فأولاهم مقاليد الأسلحة وارتاب في البعض، فوصلوا إلى السلاح عن طريق زملائهم الموثوقين إمامياً، وفي اللحظات الأولى للثورة كان في أيدي القيادة ست دبابات، اقتاد علي محمد الشامي دبابة تغلق باب قصر السلاح، واقتاد عبدالله صبرة دبابة حاولت اقتحام قصر البدر، فعجزت عن الدخول، واقتاد عبدالرحمن بن محمد

المحبشي دبابة رابطة شمال قصر البدر، واقتاد محمد السراجي دبابة رابطة في شرارة، ميدان التحرير اليوم، واقتاد صالح الأشوال دبابة احتلت دار الإذاعة، واحتلت الدبابة السادسة بوابة دار الوصول (القصر الجمهوري حالياً).

وكانت دبابة السراجي والمحبشي أنشط الدبابات قصفاً لدار البشائر، بيد أن قصفهما كان غير مدمر لقربهما من المرمى.

وعلى مدى عشر ساعات لم تحدث الدبابات في قصر البشائر إلا مجرد ثقب، فانتبه محمد مطهر وعبد اللطيف ضيف الله إلى المدافع الميدانية التي قصفت دار البشائر من الصافية فاحترقت سقوفه وأحدثت فيه حرائق بعد حرائق، وكان المواطنون يشاهدون المدافع الرشاشة تحترق في أيدي المحامين عن قصر البشائر.

وكانت الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٦ سبتمبر هي الساعة الحاسمة لتأزر المدفعية إلى جانب مدافع الدبابات.. وأكد ضباط الثورة، أن محمد مطهر كان قوي التسديد لضربه، لأن الضباط راعوا بدقة البيوت الملاصقة لقصر البدر وحرصوا على سلامتها.

وكانت الأسلحة موفورة بعد الساعة العاشرة، إذ تمكنت قيادة الثورة من الاستيلاء على كل الدبابات ومن الاستيلاء على قصر السلاح، وردوا نجاح ذلك اليوم إلى نجاح محمد زيد.

* * *

اشتهر محمد مطهر زيد بوضع الخطط الحربية، وطارت شهرته في حسن الهجوم على الأعداء، وتحديد مواقع الأسلحة.. واشتهرت له ثلاثة مواقف فريدة.

الموقف الأول استخدام المدفعية قبل الثورة.. الموقف الثاني فك الحصار العنيف على المحابشة عام ١٩٦٣م، إذ تسلق مع زميله علي الضبعي الجبال مشياً حتى وصلا إلى القوة المحصورة في المحابشة وكسروا عنها الحصار.. الموقف الثالث تجلى في رازح الذي كان محمد أحد أبطاله، مع أنه كان رئيس أركان إلا أنه ترك المكتب ودخل سخونة الميادين، فقاتل في رازح إلى جانب القوات التي قادها حسين الدفعي وزير الدفاع يومذاك.

وفي معركة رازح الشهيرة، استشهد محمد مطهر كسائر الجنود، وهو رئيس أركان، وكان أيام رئاسته على الأركان يسكن منزلاً متواضعاً بقاع العلفي بلا حراسة، كما كان يتحرك إلى المواقع بلا حراسة.

لقد أصبح محمد مطهر أسطورة حقيقية من مطلع حياته الدراسية إلى تخطيطه القتالي إلى استشهاده في معركة رازح عام ١٩٦٤م.

(٢٠)

محمد غالب صدقة

يرى بعض الدارسين أن الشعوب في فترات ضعفها هي التي تخلق جلاديتها، لأن ذلك الحكم العاتي صورتها وصورة تقبلها للظلم.

ويرى البعض أن الطلائع الحاكمة هي التي تتجاوز ضعف الشعوب وتحولها بقوتها إلى شعوب قوية، لما تتمتع به الطلائع القيادية من ثقافة وهموم جماهيرية، لأن تلك الطلائع بالقياس إلى غمار الجماهير نخبة ثقافية أو صفة فكرية.

وهذا الاختلاف لا يخلو من صحة، فلا يقتدر أي حكم أن يزاوِل مهماته إلا بتقبل الشعب على أي نحو من أنحاء التقبل. ذلك لأن كل سلطة تسخر أتباعاً ينتفعون بها ومنها بغض النظر عن صلاحية الحاكم والحكم. فقد كان يعلم رجال الحل والعقد في عام 58 للهجرة أن الحسين بن علي أفضل من يزيد بن معاوية، غير أن منافع أولئك الرجال كانت مقرونة بحكم يزيد.. ومن قبل هذا علم الكثير أفضلية علي على معاوية.

فليست الأفضلية هي كل المؤهلات، وإنما الشخصية التي تكسب الأتباع النفعيين والنافعين هي الأقدر على اقتياد الحكم.

وهكذا عرف الذين كانوا يسمون أصحاب الحل والعقد طرائقهم إلى قلوب الخلفاء والسلاطين وإلى خزائن نقودهم.

فكانوا يشيرون على الخليفة بعقد ولاية العهد لابنه وينادون ببيعته قبل أن يستخلف ويعلنونها بعد استخلافه.

وظلت هذه الوتائر تتجارى مع الزمن في كل دنيا العرب، وكانت هذه الصورة في اليمن أصرخ ألوانا، فالذين لا ينالون من الخليفة القائم يبايعون القاعد حتى يقوم فيقيموا غيره بدون هدف تغييرى وبدون طلب أفضلية للحكم.

وقد عرف شعبنا هذه الألاعيب إلى قبل الثورة بعشرين عاماً.

وكان الذين يسجنهم الإمام يحيى يفرعون إلى ابنه الأمير أحمد بتعز، ويخلعون عليه صفة ولي العهد قبل أن يخلعها عليه والده كما قال الزبيرى مخاطباً الإمام يحيى:

واجعل ولي العهد سيفاً

في يدك وساعدا

غير أن أكثر رجال الحل والعقد كانوا مقطوعي الصلة بالإمام أحمد، فكان يكوّن رجال عهده من وراء ظهر أبيه ورجال دولته، أما من تسموا بالأحرار فرأوا في الإمام أحمد عهداً مغايراً لأبيه، وعندما تولى أحمد الخلافة عقب مقتل أبيه تكشف أنه أكثر دموية وأقل اعتماداً على إرضاء المحكومين، فأمل الإصلاحيون في البدر بعد خيبة آمالهم في أبيه.

وهذا ما تنبه إليه شباب الخمسينيات الذين كان محمد غالب صدقة يهرب إليهم الكتب السياسية ويحميهم من تجسس المراقبين في مدرسة الثانوية التي كانت أهم النقاط الضوئية في الخمسينيات.

كان محمد غالب صدقة مراقباً قوي الصلة بالمراقبين وقوي التعاطف مع الطلاب، لأنه مر بمراحل التعليم التي مروا بها من دار الأيتام إلى الصف الرابع الثانوي، وقد تبين في تلك الفترة أن الطلاب كانوا يتداولون كتاباً اسمه (حكم الأمة)، وكان صدقة يحدد لهم فصولاً وصفحات يقرأونها ويستظهرونها من مثل هذا النص: (ويل لأمة يحكمها سفاح وتحني له الجبين.. ويل لأمة يجمعها طبل ويفرقها صوت).

كما كان صدقة يختار لهم المواضيع السياسية حتى من الكتب الأدبية مثل قول جبران.. (ويل لأمة تلبس مما لا تنسج وتأكل مما لا تزرع وتشرب مما لا تعصر).

حتى أن طلاب الثانوية سموا محمد غالب صدقة الوالد، لشمول رعايته للجميع ثقافياً واجتماعياً، ثم امتدت هذه التسمية إلى خارج الثانوية فكان الطلاب في كل مدرسة يسمون محمد غالب صدقة الوالد.

وتعمم هذا اللقب الذي أصبح اسماً في المجتمع الصناعي فكان لا ينادى محمد غالب صدقة إلاً بالوالد.. حتى الأكبر منه سناً لا يناديه إلاً بالوالد، ولا يخبر عنه إلاً باسم الوالد. حتى كاد اسمه

العائلي أن يَمَحِي ويحل محله الوالد.. قال الوالد صدقة.. كلمنا الوالد صدقة.. نذهب إلى الوالد صدقة.

وكان هذا الرجل مطبوعاً على حب الناس جميعاً، إذ لم يكن حنانه مقصوراً على الطلاب، وإنما كان لجيرانه مفعزاً في الشدائد ومرجعاً عند احتدام المشاكل. كان يصلح بين الأزواج إذا اختصموا، ويفض مشاكل الجيران إذا اشتجروا، ويفد به الجيران إلى الحكومة إذا حاق بهم مكروه.

وكان يسكن حي شارع المطيط بباب السبح، وسكان ذلك الحي من أبناء الشعب الكادح، فتقوى بالوالد صدقة، فإذا سجنت الشرطة أحداً من حيّه فهو الذي يدافع عنه حتى يتخلص من سجنه، وإذا صدر حكم مغلوط على أحد من جيرانه فهو الذي يدافع ويطلب استئناف الحكم أو إعادة المحاكمة.

واشتهر محمد صدقة بهذا التعاطف الجماعي، فكان يأتي إليه الناس من سائر الأنحاء الصناعية، من بستان السلطان، من النهدين، من بير العزب.. وكلهم يسمونه بالوالد حتى أبناء السبعين والستين.. وكان يرضيه ذلك اللقب ويغضب نفسياً على من يتجاوزه إلى اسمه العائلي.

وكان صدقة إذا مات أحد من جيرانه فهو الذي يساهر الميت ويبحث عن حفار القبور ويشترى لوازم الدفن، ويتولى رعاية العائلة حتى تتجاوز مدة الأسى.. وكان مأموناً، لذا كان الجيران وأمثالهم يضعون عنده وثائق بيوتهم ويستودعونه ما يوفرون من نقود وهم يرون في هذا ضمان حقوقهم.. وكان عمله لا

يتجاوز رقيباً في الثانوية تخرج منها وعاد إليها، إلا أنه تبنى كل محتاج إليه في المدرسة والمجتمع الصناعي.

وفي عام ١٩٥٤م تألفت جماعة صناعية، مستغلة وجود أمين الجامعة العربية بصنعاء عبدالخالق حسونة، فقدمت إليه رسالة منددة ببيت حميد الدين ومشنعة على الجامعة العربية تعاطفها مع حكم الإمام أحمد.. وكانت هذه الجماعة تتكون من الأسماء الآتية: أحمد بن محمد الجرموزي الذي أصبح أمير الجيش بعد الثورة مباشرة، فتحي صدقي جوهر أكبر خياط في صنعاء يومذاك، محمد بن محمد أبو طالب، عبدالكريم العمري من موظفي وزارة الصحة.

فكر هؤلاء في إيصال الرسالة إلى أمين الجامعة العربية، فاهتدوا إلى فتحي صدقي لأنه خياط فدرس الرسالة في ثياب زعم لحارس دار الضيافة أنه خيطها للوفد، فوصلت تلك الرسالة بتلك الحيلة البريئة.

وبعد ساعات علم بذلك العباس بن يحيى الذي كان نائب الحسن، فبعث عسكرياً وأميراً إلى البيت الذي قِيلَ فيه أولئك الأصدقاء، فعثروا على نسخ كثيرة من النسخة التي قُدمت لعبدالخالق حسونة أمين الجامعة العربية والذي أوصلها بدوره للعباس فكان مصير أولئك الأربعة السجن المغلظ تحت دار العباس.

وكالعادة امتدت عملية السجن إلى الذين لهم صلة بأولئك الأربعة، فألقي القبض على بعض طلاب الثانوية من أمثال أحمد النوبي وعلي ضيف الله العزيب ومحمد سعد الأنسي والملازم

أول محمد الحيمي، والرسام الشهير عبدالكريم الغسالي والملازم محسن جياش وحسين الجبري ومحسن الجبري.

وما إن علم محمد غالب صدقة بسجن هؤلاء حتى هب كعادته للدفاع عنهم وتخليصهم، فوقع سجيناً إلى جوار أصدقائه.

* * *

كان محمد غالب صدقة يبذل رعايته وجهده بطيبة من يؤدي واجباً هاماً، لإحساسه ببنة كل الناس وأبوة لكل البنين.. فكان لكل الطلاب والدأ.. وكان يعير الكتب بالتناوب بحيث يمر الكتاب على أكثر من عشرة في الشهر، ويحضّر للعاجز عن شراء اللوازم المدرسية كل ما يلزمه، فنشأ جيل الثوار في ظل الوالد صدقة.

ولما التحق الخريجون من الثانوية والتحضيرية بالكلية الحربية ظلت رعايته ممدودة، إلى جانب الذين دخلوا العسكرية، كامتدادها إلى الذين التحقوا بالثانوية والتحضيرية من التلاميذ الجدد، لأنه قد أصبح والدأ اجتماعياً لكل الناس كالمندورين للتعاون عند كل مهمة تلم بجار أو تقع على أي أحد.

وكان في صنعاء من أشباه محمد صدقة مشاهير بهذا التعاون من أمثال الحاج عبدالله المحفدي في حارة الجلا، وعلي محمد الشهاري في حارة الصياد، وقد اشتهر هؤلاء الثلاثة بمواساة اليتامى والقيام بالواجب لكل عائلة منكوبة، غير أن محمد صدقة لم يكن مجرد تعاوني وإنما كان أبأ روحياً، لأنه كان يوزع

الكتب الثقافية عن مبدأ سياسي، ويناقد أصدقاءه القراء في تلك الكتب، وكان على تواضع تعليمه قوي الإلمام، سريع الإدراك لأكثر الكتب تعقيداً.. وكان يهتم من الكتب ما يدعو إلى الأخلاق الكريمة وإلى السياسة الشعبية وإلى التربية الفضلى.

فقد كان رقيباً كأستاذ، وكان أستاذاً كوالد لجميع طلاب المدارس المتوسطة والثانوية والتحضيرية.

وعندما قامت ثورة ٢٦ سبتمبر رأى الوالد صدقة أبناءه وهم يقتادون فجر الثورة إلى أعين الساهرين، وظل ذلك الوالد للأقارب والأبعاد، فلم يبحث عن منصب وإنما توظف كمسئول مالي في القصر الجمهوري من الثورة إلى وفاته الغامضة الفاجعة سنة ١٩٨٣م.

(٢١)

حمود عائض الجائفي

كان زعماء العشرينيات والثلاثينيات من ملوك الأفكار، كما كان كبار العسكريين يتوسعون في الثقافة الأدبية والفكرية والتاريخية.

كان سعد زغلول مرجع معاصريه من المثقفين من أمثال المنفلوطي والرافعي وكان يسرُّهم أن يتيمَّنوا بكلمة يكتبها على سطور مؤلفاتهم، وكان فارس الخوري مرجع المثقفين في سوريا، وكان رأيُه النقدي حجةً ساطعة بين سادة الكلمة.

كذلك العسكريون، فقد كان أهم القادة من الكتاب المؤلفين من أمثال ياسين الهاشمي وصالح مهدي عمَّاش في العراق، ومن أمثال عبدالله التَّل في الأردن، ومن أمثال محمد شيت خطاب في مصر.

أما من الخمسينيات إلى الآن فقد احتكر التخصص أغلب المتخصصين، فقلت ثقافة الساسة والعسكريين، ولم يعد يتمتع بالعطاء الثقافي تلقياً وإبداعاً إلا النادر، من أمثال أحمد حمروش في مصر، ومصطفى طلاس في سوريا، وعلي أبو نوار في الأردن.

وهذه الندرة في المثقفين العسكريين تدل على سعة العلوم العسكرية واحتياجها إلى الانقطاع. ومع هذا ما خلا جيش من المثقفين، وإن كانوا دون المثقفين السابقين، في كل الوطن العربي وفي العالم.

وقد تميز الرعيل الأول من العسكريين في اليمن بالميل إلى الثقافة والاستكثار منها، من أمثال أحمد حسين المروني الذي لقبه الإمام يحيى بشاعر الجيش، ومن أمثال الكاتب أحمد المطاع رئيس تحرير مجلة الحكمة بعد الوريث.

وكان حمود عائض الجائفي شديد الميل إلى القراءة وبالأخص قراءة التواريخ، فكان متميزاً سلوكاً وأفكاراً.

* * *

نشأ حمود الجائفي تحت سقف العشرينيات، وكانت الثقافة في اليمن يومذاك مقصورةً على التواريخ القديمة، وعلى المجموعات الشعرية، من أمثال دواوين الحماسة والمستطرف.

وتدل مذاكرة حمود الجائفي على أنه تعمق في قراءة كتاب المستطرف وديوان الحماسة لأبي تمام وللشجري، لأنه كان كثير الاستشهاد بالشعر المدون في هذه الكتب، وهذه الثقافة تتلاءم مع أساسه التعليمي، إذ كان القرآن وكتب الدين كل المنهج التعليمي.

وقد تعلم حمود الجائفي في دار الأيتام، التي كانت تحظى برعاية خاصة وبتلاميذ متفوقين، ثم انتقل إلى المتوسطة وكانت

تتميز بالأساتذة المتحمسين للأدب والسياسة، وفرشحه تعليمه وميله الثقافي لعضوية أول بعثة عسكرية إلى العراق عام ١٩٣٣م.

لاقت البعثة العسكرية اليمنية في العراق مناخاً مختلفاً عن صنعاء، إذ رأت هناك المكتبات المليئة بالكتب والعسكريين الذين يكتبون في التاريخ ويرددون الشعر ويقولونه. وكانت البعثة اليمنية الأولى من أنبه الرجال فأثر فيهم التعليم الجديد وفتح مداركهم على العالم وما استجدت فيه من أحداث وثقافات.

وفي عام ١٩٣٦م أرسلت بعثة عسكرية ثانية إلى العراق وظلت تواصل دراستها وثقافتها إلى عام ١٩٤٠م. فكان لهاتين الدفعتين أكبر الأثر في الحياة العسكرية والمفهوم الوطني، وكان حمود الجانفي لا يبدو مثقفاً لأنه كان قليل الكلام والكتابة، فلا يتبدى مثقفاً إلا من خلال النقاش ومن خلال المطارحة الأدبية، على حين أبدى بعض زملائه ما ينطوي عليه من الثقافة والتعليم، كأحمد الحورش الذي كان يكتب في مجلة الحكمة، وزيد عنان الذي ألف كتباً في التاريخ.

غير أن الجانفي تميز بحسن الأسلوب الإداري والفهم القيادي، فكان عسكرياً في تسيير الإدارة وفي انضباط الجيش، وكان مرجعاً للأساتذة العسكريين في كل مهمة، حتى سماه جمال جميل البحر الصامت.

* * *

شكل أولئك العسكريون حركةً وطنيةً دينيةً، وكانت الأربعينيات من الفترات الخليط في الثقافة والسياسة. كان مؤلفو تلك الفترة، يكتبون عن الأدب الماضي ورجاله كابن الرومي، والمتنبي، وأبي نواس، وقلّما كتبوا عن العصر وآدابه.

وفي الأربعينيات مالوا إلى الكتابة عن رسول الله، كتب محمد حسنين هيكل **(حياة محمد)** بعد أن كتب جان جاك روسو وفلسفته السياسية، وكتب العقاد **(عبقريّة محمد)** بعد أن كتب **(حياة ابن الرومي من شعره)** وألف طه حسين **(على هامش السيرة)** بعد أن كتب **(قادة الفكر اليوناني)**.

فلا غرابة أن يكون الأحرار اليمينيون في الأربعينيات متأثرين بالكتابات الدينية، متعصبين للدين، لأنه كان حجتهم على الإمام يحيى. إذ ادّعوا أنه أهمل الحدود وأن أبناءه تجاوزوا الحدود، فشكّل العسكريون أملاً للأحرار الذين أرادوا حياة سياسية دستورية، وإقامة حكومة متعددة السلطات، وكان جمال جميل العراقي واسع التأثير على أمثال الجائفي من العسكريين.

وعندما قامت حركة ١٩٤٨م لم يتضح للعسكريين اليمينيين أثر في العمل الانقلابي، فقد نفّذ قتل الإمام يحيى خمسة من الشيوخ، وتبدى دور العسكريين في ضبط الأمن بالعاصمة، فقسموا حارات صنعاء إلى مناطق قيادات: قيادة بير العزب، قيادة دار الشكر، قيادة الميدان وقصر غمدان.

وشكّلت هذه القيادات قيادات صغيرة على أبواب العاصمة، وكان حمود الجائفي قائد باب خزيمة فتكفل بحماية صنعاء من

ذلك الباب وحول السور من باب البقرة إلى باب اليمن، وكان منقطعاً لعمله ليل نهار، وبرهن على كفاءته، إذ لم ينسل من منطقته أي هجوم عند سقوط الدستور.

وكانت منطقة القصر أول منطقة اختلت من داخلها، إذ أطلق مدفعيو جربة المدافع قذائفهم على مقر إمام شباط، وأطلقوا القذائف المشتعلة في الهواء إيذاناً بانتصار الإمام أحمد على الدستوريين، وفي تلك اللحظات الحرجة ردد علي الوزير: "لو صدّقنا الجانفي" "ما لهم لا يصدقون الجانفي؟!!" فماذا كان رأي الجانفي؟

كان من رأيه أن تتشكل قيادة واحدة لحماية صنعاء من ضواحيها لا من داخلها، قال الجانفي: "لا يمكن أن يخون معسكر القصر إذا كان في نغم مدافع في أيدي مخلصين". ولعل الجانفي أبدى رأيه بدون تعصب له كعادته في إبداء الرأي.

بعد سقوط الدستور استضاف سجن نافع بحجة حمود الجانفي مع الآلاف من أبناء صنعاء ورجال الانقلاب وكل المعممين والمطربشين.

فقد كانت جماهير صنعاء تهتف: "لا يبقى مطربش.. ولا يبقى معمم قد قال حزيز والإمام تكلم" وكانت الحملة على المعممين والمطربشين من قبل الجماهير لأنهم الوجوه التي تألقت تحت ضوء الانقلاب الدستوري.

* * *

لبث حمود الجائفي في سجن نافع نحو ثمان سنوات من ١٩٤٨م على حين أفرج عن الكثير من زملائه بالمطالبة الشخصية، وبكثرة الشفوعات.. أما الجائفي، فظل إلى عام ١٩٥٥م ثم أفرجت عنه حركة الثلاثي وعبدالله ضد الإمام أحمد، إذ تحول سجناء حجة إلى أنصار للبدر، الذي أراد أن يفك الحصار عن أبيه بتعز، ثم أسقط أحمد الانقلاب بعد خمسة أيام بدون نجدة من البدر، إلا أن تجمع سجناء حجة حول البدر أرهب انقلابي مارس في تعز، لأن حول البدر وجوها عسكرية مرموقة من أمثال عبدالله السلال، عبدالقادر أبو طالب وحمود الجائفي.. الذي كان معروفاً بالتدبير القيادي والتخطيط العسكري.

بعد الإفراج عن الجائفي تولى إدارة الكلية الحربية عام ١٩٥٨م وحولها إلى كلية حديثة نتيجة استيراد الأسلحة من الاتحاد السوفيتي، وكان في إدارته قوي الحزم، دائم الانتباه، فأحدث في الطلاب روحاً جديدة حتى كأنهم خلُقوا من جديد، إذ تحولوا مفهوماً ونفسياً.

وفي عام ١٩٦١م قام اللقية والعلفي والهندوانة بمحاولة اغتيال الإمام أحمد بمستشفى الحديدة، فتسبب إخفاقهم في القبض على العسكريين، وكان أول عسكري يُزج به في السجن هو الزعيم الجائفي، وبعد التأكد من براءته تخفف عنه السجن وسمح له بزيارة بيته نهار كل جمعة.

على أن يقضي المبيت في سجن القلعة، فرأى الضباط وبعض المشايخ تهريب الجائفي إلى عدن، فنفذ المهمة صالح الرحبي ومحمد عبدالله أبو لحوم.

وفي عدن لم يجد الجائفي استقراراً تحت حكم الإنجليز، فبعث إليه البدر من يؤمنه، فادعى الجائفي أنه يعاني مرضاً خطيراً، فأمر البدر باستشفائه في روما فاشتم الجائفي صدق البدر أو تأكد من عدم مكيدته، فعاد من روما إلى صنعاء في مطلع عام ١٩٦٢م، وأناط به البدر مهمة الأمن يوم دفن الإمام أحمد في ١٨ سبتمبر ١٩٦٢م، فقام الجائفي بمهمته على أكمل الوجوه، وفند آراء الذين أرادوا القيام بالثورة يوم دفن الإمام أحمد مهما كانت الفرصة مواتية، قال الجائفي: **(سيتهمنا الشعب بعدم الأخلاق لأننا لم نحترم هذا النعش المهيّب، وكما ستسقط ضحايا إلى جانب البدر والأمراء حول النعش، إن الثورة سوف تتحول إلى فوضى)**، وأقنع الذين أرادوا القيام بالثورة يومذاك.

وكان الجائفي في تلك الأيام مسئولاً على ميناء الحديدة، وإنما حضر للمشاركة في دفن الإمام فأضيفت له مهمة الأمن في صنعاء ثم عاد إلى الحديدة. وفي ليلة ٢٥ سبتمبر وفد إليه بعض الضباط من صنعاء طالبين منه قيادة الثورة فرفض أشد رفض وبذل كل ما في وسعه لخدمة من سوف يقوم بقيادة الثورة، وقال: اعتبروني جندياً لكل مهمة، أما القيادة فلست من أهلها.

وفي أيام حروب الثورة، قاد الجائفي أشد المعارك المنتصرة، وكانت تخطيطاته تدهش العسكريين المصريين، وبالأخص

عندما سحقت قوات اليمن جيش ثلاث دول في معركة حرض
سنة ١٩٦٣م.

بعدها في عام ١٩٦٤م شكل حمود الجائفي الحكومة ورأى نفسه
على رأس وضع مُفلس، محتاج إلى الإنفاق فاستقال بعد شهر،
ثم مال إلى العكوف في بيته على كتب التواريخ إلى أن تعين
سفيراً بالقاهرة عام ١٩٦٥م، وتنقل من سفارة إلى سفارة،
وكانت آخر سفاراته في المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٠م،
وبعد نهاية مدته سافر إلى أولاده بالقاهرة لكي يقضي معهم بقية
العمر كما قال، فقد أحس أن أمراضه تتفاقم وأن الطب يبدي
عجزه في شفائه.

وكان يقول: **(الموت طبيب الأطباء) ..** وفي الشهر السابع من
عام ١٩٨٥م ودّع حمود الجائفي عالم الأحياء إلى رحاب الله.

(٢٢)

عبدالله حمود حمران

كان شباب الخمسينيات من طلاب دار العلوم من صنفين، صنف لا يهتم بالمعاصرة بل يمجتها، وصنف لا يرى للقديم أي فضل وإنما يرى ثقافته ميتةً مثله، لأنها مجرد حذقة لغوية ومسائل تحليل وتحريم، كما أشار لطف التهامي:

الناس قد بلغوا السماء

ونحن في زيدٍ وعمرٍ

أو في الموضوع وفي نواقضه

وفي حيضٍ وطهرٍ.

ومن الفريقين تكون فريق ثالث عرف للثقافة القديمة فضلها التأسيسي وللثقافة الجديدة قيمتها كثقافة عصر حي تتحدث عن أحياء ومن أحياء.

ومن هذا الرعيل المستبصر عبدالله حمود حمران.

* * *

ذكر عبدالله حمود حمران في الخمسينيات بعبدالله حسين العزب.. إذ جاء كلاهما من الحيمة وتربى كلاهما في مهد الفقر. كان عبدالله حسين العزب طالباً بدار العلوم في الثلاثينيات وكان مضرب المثل في الكد وراء التحصيل العلمي، وكان مضرب المثل في قوة اللاقطة والحافطة وسرعة الاستبداه، كما كان ميولاً إلى القراءة الخاصة، إلى جانب منهج دار العلوم، وبعد أن اشتهر بالتحصيل والتثقيف الخاص، أحدث مفاجأة شعرية، إذ طلع على تلك البيئة بشعرٍ غير معهود على تلك البيئة، من مثل قوله في رثاء يحيى الإرياني:

إن ذا الموت غاية الميلادِ فعلام الصدام في كل وادي

أي داعٍ دعا النفوس إلى الحزن وهذا ضربٌ من المعتاد

فكان هذا الرثاء الذي أبدعه العزب شديد الاختلاف عن شعر المراثي التي تُطفئ الشمس على الفقيد وتُزلزل الكرة الأرضية أسفاً عليه، على حين انطلق العزب من منظورٍ حياتي إلى الموت ومن تجربةٍ يومية، فكان رثاؤه من رؤية جديدة كما أنه صياغة جديدة.

بهذا كان عبدالله العزب في الثلاثينيات مَلَقَتْ الأنظار لما حقق من تجديد في الشعر ومن لمحات نقدية في الكتابة، وكان ذلك الجيل يجد في نبوغ العزب غرابة بالقياس إلى والده الذي كان بطيئ الفهم نائم الذهن. كذلك كان عبدالله حمران في الخمسينيات، كان يدرس في الصباح كطالب ويدرس في الأصيل والمساء كأستاذ ويعمل محامياً إلى جانب معارفه من

أهل الحيمة. ويقرأ ما وقع في يده من الكتب سواء أكانت قديمة أو جديدة، وإن كان أميل إلى الجديد.

كان يخرج إلى مقاليل القات تحت إبطيه ديوانان، ديوان الحماسة لأبي تمام، وديوان الجداول لإيليا أبي ماضي، فكان حمران يجمع عشرين من عصور الشعر تحت إبطيه.

* * *

التحق عبدالله حمران بدار العلوم سنة ١٩٥٠م، ولما كان تعليمه في كُتّاب القرية ذي الفصل الواحد أمضى دراسة سنة في الشعبة التحضيرية التي تتم دراسته الابتدائية، وترشح للشعبة الأولى من دار العلوم ثم دخل الشعبة الأولى عام ١٩٥١م، وكان ترتيبه الأول في التحضيري وفي الشعبة الأولى، وفي السنة التالية أبدى مفاجأة لشيوخة وزملائه إذ امتحن دروس الشعبة الثانية والثالثة التي لم يلتحق بها فكان أول طالب اجتاز عامين في عام واحد.

وفي سنة ١٩٥٤م كاد أن ينقطع عن الدراسة كلياً لاشتغاله بطلب عمل، لكي ينفق على أهله الذين مات عائلهم، وظل عبدالله حمران متنقلاً من باب وزارة إلى باب وزارة، ومن تعز، إلى صنعاء ومن الحديدية إلى تعز ومن تعز إلى عدن، ومن عدن إلى الخليج، ومن الخليج إلى صنعاء.

وفور رجوعه من الخليج عاد إلى مدرسة دار العلوم فامتنح دروس الشعبة الرابعة صف أول بدون أن ينتظم في الدراسة

لأنه كان يأخذ الكتب من زملائه ويراجع في شهر ما قرأه شهوراً.

توقف عند الشعبة الرابعة من الصف الأول وابتدأ مزاوله الشعر عام ١٩٥٥م وكانت الظروف ملائمة بفضل وجود صحف أسبوعية فتابع نشر قصائده في صحيفتي سبأ والنصر، وتبدى في بواكيره متأثراً بأدب المهجر الأمريكي، وبإيليا أبي ماضي خاصة، ولما انفتحت الإذاعة في ذلك العام، لاح له بريق الأمل الحقيقي لكونه مثقفاً ولائقاً بالإذاعة صوتياً وثقافة، فتابع طلبه بلا خيبة وإنما على مواعيد متراوحة متجددة، لأن مدير الإذاعة محمد أحمد الشامي كان يعرف صلاحية عبدالله حمران ويتخوف من النابيهين سياسياً، لأن محمد الشامي كان على عهد قريب من سجن حجة الذي ظل فيه أكثر من خمس سنوات، غير أن حمران لم ييأس، ولم يجد مرفقاً أنسب من الإذاعة لكون هذا المكان يبرز مواهبه ويحمله على المزيد من التثقيف، غير أنه لم ينجح في تلك الفترة، فحصل على تدريس الأدب في المدرسة الثانوية بمساعدة خاصة وبأجر شهري مقداره ثمانية ريالات. وفي هذا الوقت عام ١٩٥٦م قُبل في الإذاعة كمداوم ومشارك في العمل الإذاعي إلى أن يتقرر مرتبه من المقام في تعز.

وفي عام ١٩٥٨م وصل من عدن النقيب العمالي محمد عبده نعمان فافتتح في إذاعة صنعاء برنامج (ركن الجنوب اليمني المحتل)، فأصبح عبدالله حمران زميلاً لمحمد نعمان في هذا البرنامج، وفرضت كفاءته على إدارة الإذاعة توظيفه، وبعد أن عمل سنتين بأجر زهيد مقداره ستة ريالات في الشهر، ولعل

سبب قبوله موظفاً في الإذاعة يرجع إلى ما حققه من سمعة عند المستمعين، ففي تلك الفترة سمّاه المواطنون أحمد سعيد اليمس.

وجرّت عليه هذه السمعة مشاكل عائلية، فحين سمعت والدته صوته في الإذاعة رتّبت عليه ثروة من نقود الحكومة فغادرت الحيمة إلى صنعاء، فأضيف إلى حمران عبءٌ جديد، إذ لا يملك مسكناً له ولوالدته ولا في مقدور نقوده استئجار بيت، لأنه كان مسرفاً في أكل القات، كثير الديون كما كان يشكو، فأسكن والدته بالجراف حيث وجد كوخاً مجانياً، وظل بين العمل وقرية الجراف التي كانت بعيدة يومذاك.

ثم تلاحقت على عبدالله حمران طلبات الأخوات كما هي عادة أهل الريف في ذكر قريبهم عندما يتوسمون تحسن أحواله، وفي تلك الفترة كان عبدالله حمران منقطعاً للإذاعة إذ استغنت عنه المدرسة الثانوية لأنه كان أستاذاً مؤقتاً عن أستاذٍ غائب.. وقد شرح عبدالله حمران هذه الحال في مقطوعة شعرية بعثها إلى الإمام أحمد:

يا إمام الأنام أرجو سماعاً إن أمري كما ترون عجبٌ

أستكي محنة الجنوب وعندي محنٌ لا يُطيقُهن الجنوبُ

فلاقى استجابة وتعطافاً لأنه أجاد شرح الحال وأحسن التشبيه، فكيف يتظلم للشطر الجنوبي وهو يعاني ظلم البؤس وكثرة العائلة.

غير أن عبدالله حمران كان يوظف ذكائه في عشرات المرافق، فكما كان يجيد قرض الشعر كان يحسن استيعاب الكتب وكما كان يجيد هضم الكتب، كان يحقق أساليب العلاقات مع الذين ينفعون، ففي عام ١٩٥٩م تمكن من الحصول على إجازة من الإذاعة، والتحق بمراقبي عمال طريق صنعاء- الحديدة، فكسب من هذا المرفق ما سد تكاليف بناء بيت في خلال شهر، إلى جانب زيادة مرتبه في الإذاعة، إذ كان من الدرجة الأولى بفضل حسن العلاقة بينه وبين المدير، فاستطاع أن يغلب صديقه الفقر في ظرف عامين.

ومن عام ١٩٦٠م تنوعت أعماله الأدبية والإذاعية، فواصل نشر قصائده في صحيفتي النصر وسبأ.

وعمل في الإذاعة منفذاً وقارئ أخبار، وفي هذه الفترة عام ١٩٦٠م هداً برنامج ركن الجنوب وذلك نتيجة فرار ثوار من الشمال إلى الجنوب، فكان الاتفاق على تبريد السخونة الإعلامية ضد الاستعمار أو إيقافها، فاخترى عبدالله حمران من برنامج ركن الجنوب، إذ لم يعد له وقت ثابت، وإنما كان خاضعاً لرياح السياسة المتغيرة، فقدم عبدالله حمران بدلاً عن ركن الجنوب، برنامج (شخصيات أدبية) على مدى دورة إذاعية، ثم انتقل هذا البرنامج إلى آخر فكتب حمران برنامج (قصة الأسبوع). وكان هو الذي يؤلف القصة.

فتجلى حمران قصصياً له مستوى أدبي جيد، إذ كانت قصته تعتمد على الموضوع أكثر مما تعتمد على الشروط الفنية، غير

أن أسلوبه القصصي تطور من قصة إلى قصة، فأنتج نحو خمسين قصة تخصصت للسمع الإذاعي ولم تنتشر لا دورياً ولا في شكل مجموعة حتى الآن.

وكان عبدالله حمران يعرف أصول الأخلاق الإذاعية، فيتعاون مع كل الزملاء في تسجيل برامجهم، إلا أنه كان يأنف جهازاً من أن يسميه المذيعون زميلاً، ولكنه ظل لصيقاً بنفوس زملائه، قوي العلائق بكل الناس.

ولما قامت الثورة ٢٦ سبتمبر أحدثت التحولات في كل المجاري الحياتية والسياسية، فتعين عبدالله حمران مديراً عاماً للإذاعة، ومن ذلك الحين تخصص بالإشراف على الأعمال الإذاعية وبالأخص البرامج السياسية، وتجلّى حمران كمعلق سياسي من مستوى رفيع، فكانت تعاليقه عنيفة الوقع والإيقاع. فواصل إدارة الإذاعة وكتابة التعاليق والاتصال بالجهات العليا مدة سنتين ثم التحق بفريق الجمهوريين المعتدلين فزار السجن والمنفى.

وفي عام ١٩٦٧م رجع إلى الحياة السياسية العليا وإلى كتابة التعاليق السياسية، لأن تنقله ظل إعلامياً من قبل ومن بعد، فتعين وكيلاً لوزارة الإعلام ثم وزيراً للإعلام، ثم تعين ممثلاً شخصياً لثلاثة رؤساء، وعلى علو هذه المكانة فإن عبدالله حمران ظل على صلة بكل أصدقائه، لم يتنكر ولم يتغير كما ظل على علاقة بعالم الكتب.

ومن عام ١٩٧٨م تعاودته الأمراض فطلب منه أصدقاؤه نشر تعاليقه السياسية وأشعاره وأقاصيصه، فظل يواعد ويسوّف ولم

ينشر غير مجموعة من شعره بعنوان (أنا وقلبي)، أما القصص والتعليق فما تزال تنتظر النشر، غير أن عبدالله حمران وقع في الأمراض وفي جديد من المشاكل السياسية، فتعين للمرة الثانية سفيراً في السودان وكان شديد التعلق بتلك البلاد. ولم يعد من السودان إلا إلى أحضان العلل المتعاقبة حتى أعيأ الطب الذي قصده في أعلى مراكزه.

وكان عبدالله حمران يحس دنو أجله الذي يحدث إليه السير وكان على شدة أمراضه على صلة بالقراءة حتى قطعه عنها هجوم الموت في مطلع الثمانينات عن خمسين عاماً حافلة بالمرارات وبالتحصيل العلمي والتوسع الثقافي والإبداع الأدبي.

(٢٣)

عبدالله بغدة

كان الرعيل الأول من المثقفين اليمنيين المعاصرين يمثلون خاتمة القدماء وطلبة المحدثين، لأنهم أحاطوا بعلوم الفقه واللغة وألموا بالأدب القديمة وشموا روائح المعاصرة ودخلوا في أطرافها.

فكان في رداء القاضي الشرعي الشاعر والمؤرخ، وكان تحت رداء الفقيه الفلكي والمتفلسف أو الميول إلى الفلسفة.

وكان أولئك الرجال من ضريبين.. منهم من أحاط بالقديم وصعب عليه فهم الثقافة المعاصرة، حتى لو كانت عن قديم، فقد كان أحمد الكحلاني، وهو من أوائل شيوخ دار العلوم يستغمض كتابات طه حسين ومحمد كُرْد علي، ولا يكاد يفقه ماذا يقول هؤلاء المعاصرون، حتى ولو كانت كتاباتهم عن امرئ القيس وقيس بن الملوّح، وكان للكحلاني أمثال من الذين وقفوا على باب العصر ملفوتين إلى العصور الأولى فظل أمثال هؤلاء خاتمة القديم.

وكان إلى جانب هذا الضرب صف من العلماء الذين يحذقون اللغة تعلمًا وتعليمًا، والفقه أصولاً وفروعاً وأهلهم هذا التعليم لفهم الثقافة المعاصرة بكل أشكالها الشعرية والنثرية، من أمثال

عبدالكريم مطهر الكاتب الأول لديوان المقام، ورئيس تحرير جريدة الإيمان التي صدرت في منتصف العشرينيات، ومن أمثال يحيى الإيراني الذي كان يُدرس كل فروع المعرفة بما فيها علم العروض للخليل بن أحمد.

وكان يكتب المقالات كعبدالكريم مطهر، ويقول الشعر الأقرب إلى القديم، أما عبدالكريم مطهر، فقد كان لشعره روائخ معاصرة نهضوية ومفردات أقرب إلى اللغة اليومية.

يشبه الاثنين محمد بن أحمد الحجري الذي تعلم الفقه وعلمه واهتم بالتاريخ اليمني خاصة، وألف فيه كتابين، الأول بعنوان **(الأنساب)**، والثاني بعنوان **(مجموعة بلدان اليمن وقبائلها)**، وأمثال هؤلاء كثير الذين شكلوا طليعة الحدث والتحديث، وأهم ما أعقبوا أنهم فتحوا باب المعاصرة فتلاهم صف جديد كان كانت المعاصرة أقرب إليه من السلفية، من أمثال زيد الموشكي، ومحمد الزبيري، وعبدالكريم الأمير، ومحمد موسى، وحسين الدعيس، وعبدالرحمن الإيراني.

فقد ثقف هؤلاء ثقافة فترتهم، كما ألموا بثقافات آبائهم، وشكل الصف الثاني جسراً إلى المعاصرة الحقيقية التي بدأت بذور شمس الخمسينيات فقد كادت تلك الفترة أن تشكل انقطاعاً عن الماضي بفضل ما زخرت به من ثقافات متنوعة الصور، متعددة القنوات. وكانت فترة الخمسينيات بداية مغايرة للمستينيات، بل ولآخر الخمسينيات، لأن تسارع التغيرات كان يتزاحر في كل لحظة، فاختلف النشء الذي ورد على المدارس

في آخر الخمسينيات، لأن التغير قد أتى من المجتمع إلى المدارس، ولم يعد يأتي من المدارس وحدها إلى المجتمع. فكان طلاب أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من نبت عهد التمرد والتطلع بحكم ما طرأ على البيوت من رفض للقائم وتوقٍ للبديل الأفضل.

حتى القوانين المدرسية تلاشت فتحطمت الموانع أمام الراغبين للدخول في الدراسة بعد أن كان الانتظام محدوداً، إذ لا يدخل عشرة من الطلاب إلاً وكان عشرة تخرجوا أو انقطعوا وهو ما كان يسمى رسمياً بالمنحل أي وجود فكان سابق للطلاب اللاحق.

وفي آخر الخمسينيات أصبح قبول الطلاب غير مشروط، إما مداراةً للناس وإما بسبب التراخي الذي أصاب النظام.

ففي هذه الفترة، دخل دار العلوم والثانوية أبناء كل الفئات من خياطين ونجارين وحدادين وقواتين وباعة صغار وفلاحين، مع أن دار العلوم كانت خاصة بأبناء قضاة المحاكم ومدراء المناطق. ولكن التغير وصل إلى كل مكان.

وفي هذه الفترة المُرْهصة بالثورة التحق عبدالله بغده بدار العلوم.

* * *

تعلم عبدالله بغده في مكاتب صنعاء النظامية وكانت من ستة فصول، وبعد الابتدائي التحق بالمتوسطة وتخرّج منها إلى دار

العلوم حيث كان خريجوها يرقون إلى مناصب القضاء وإدارة المناطق والكتابة في المحاكمات.

ووراء هذا التخيّل لهث عبدالله بغدة، فدخل الشعبة الثانية من الصف الأول، لأنه كان قد ألّم بشيء من الفقه واللغة في حلقات الجوامع، فأعد نفسه لدار العلوم قبل دخولها وكان إلى جانب دراسته بدار العلوم يحضر دروس أحمد الكحلاني بين العشاءين في مسجد الوشلي.

كما كان يقرأ قبل دروس دار العلوم درساً في المنطق عند القاضي يحيى العنسي في مسجد الرحمة، وكان القاضي يحيى العنسي هو الوحيد الذي يدرس كتاب (الإيساغوجي) في علم المنطق.

بهذا نظّم عبدالله بغدة أوقاته وملأها بالدراسة في دار العلوم والمساجد، وكان طلاب ذلك الحين يسخرون من جدّه لأنهم قد عرفوا خيبة من قبلهم، لأن تلك الفترة كانت رفضاً شاملاً حتى للدراسة التقليدية، إلّا أن بعض الجادين رأوا فرقاً بين العهد السياسي الذي يمثله الإمام وبين المنهج التعليمي الذي ينفع في كل عهد. فواصل عبدالله بغدة دراسته باهتمام، ولما وصل الشعبة الرابعة قامت الثورة ٢٦ سبتمبر.

* * *

تسبب قيام الثورة في زيادة رفض دروس دار العلوم، برغم تحريض الأستاذ الزبيرى وزير التربية والتعليم بعد الثورة

طلاب دار العلوم بالدراسة، فعندما زار دار العلوم بعد الثورة وعد الطلاب بدخول مواد جديدة على دروسهم، وتحسين المنهج عامة، والبحث عن أساتذة أكثر كفاءة.

غير أن الطلاب لم يعودوا يقبلون شيئاً يمثل العهد البائد، بالإضافة إلى هذا استجدت مهمات للطلاب، إذ دعا الأستاذ الزبيري الطلاب إلى الانتشار في مناطق اليمن للتوعية بالثورة، وشكل جماعات لكل منطقة، وفي تلك الفترة تعين عبدالله بغدة على رأس جماعة إرشادية، اتجهت إلى أنس وجهران.

ولاقت بعضُ الجماعات مشاكل قتالية، كما لاقت بعضُ الجماعات مناطق ريفية أكثر حماساً للجمهورية من أهل المدينة، فلا حاجة لإرشاد الرشيد.

فرجعت كل الجماعات ملتحةً بأعمال مختلفة، فانضم البعض إلى الحرس الوطني، وانضم البعض إلى الجيش النظامي، والتحق البعض بالأزهر بالقاهر، وكان عبدالله بغدة من الذين انضموا إلى الإداريين في الجيش النظامي، وأبدى كفاءة حسابية وكتابية فاقت الذين سبقوه بسنوات.

* * *

ولما تشكلت إدارة الشؤون العامة للتوجيه المعنوي عام ١٩٦٦م كان عبدالله بغدة من الذين طلبتهم الإدارة، لمعرفة به وبكفائه النزاهة من كل غرض.

فعمل عبدالله بغدة مديراً لقسم التوجيه وللشئون المالية مدة سنة ١٩٦٦م، وفي عام ١٩٦٧م اتسعت الإدارة وتكاثرت مهماتها نتيجة الهجوم على صنعاء وقلة أفراد الجيش.

قال عبدالله بغدة إن صنعاء محاصرة بتسعين ألف مقاتل وجيشنا يتكون من ألفي جندي وسبعة ألف ضابط. وهذا ما دعا عبدالرقيب عبدالوهاب رئيس الأركان يومذاك إلى إصدار أوامر إلى الضباط الذين يقودون معسكرات أن يقاتلوا كأفراد عند الضرورة فتأهب كل لواجه.

وكانت إدارة الشؤون العامة من إداريين عسكريين وصف ضباط، وكان نعمان المسعودي مدير الشؤون يعرف كفاءة الأفراد ومواهبهم وقُدرة كل واحد على الإثمار في موقعه، إلى جانب روح التطوع التي شملت كل المواطنين.

فكان نعمان المسعودي مدرباً في معسكر المقاومات ومقاتلاً في كل موقع يصل إليه، وكان يحيى محمد الكبسي يشترك في كل معركة وصلهم خبرها أو عرفوا تركيز الهجوم عليها، وكان أحمد سالم المعمري أوفرهم نشاطاً، فتعين لإذاعة برنامج للتوجيه المعنوي يحيى بيدر وعبدالله بغدة وكان الاثنان يقصدان كل المواقع لتسجيل الانتصارات ورفع المعنويات.

وتبدى أثر تعليم عبدالله بغدة في كتاباته الإذاعية التي كان يوجهها إلى القوات المسلحة والمقاومة الشعبية.

وتبدى برنامج القوات المسلحة المذاع مسموعاً تثقيفياً لكل القطاعات، كان يحتوي على حديث سياسي، وعلم نفس عسكري وعلى فقرة من أدب الحروب، وعلى درس في الوطنية، وكان عبدالله بغدة هو الذي يكتب هذه الفقرات ويؤب البرنامج على الأهمية، ومن أحاديثه السياسية التي لفت بها الانتباه حديثٌ بعنوان "الموت من أجل الشعوب" فقد ضرب المثل بفرنسا التي دحرت الاحتلال النازي وبروسيا التي تحولت من مغزوة إلى غازية حتى وصلت قصر هتلر طاغية ألمانيا والعالم.

أما أدب الحرب فكان يختار عبدالله بغدة ثلاث قطع من الشعر والنثر، وكان ينتخب الشعر السهل المؤثر والنثر المؤدي والصور المعبرة.

* * *

وعندما حدث ما تسمى بهجوم عصر في يناير ١٩٦٨م، انتدب عبدالله بغدة نفسه للقتال، فقد علم من الاستطلاع الحربي أن العدو جيش عشرة آلاف للهجوم مساءً على اللواء العاشر المعسكر في عصر، وكان هذا اللواء من الجنود النظام وليس لديه من السلاح الثقيل إلا مدفع ميدان ودبابتان، فقاتلت كل الشئون العامة إلى جانب اللواء العاشر الذي حقق أعظم انتصار في تاريخ السبعين يوماً.

ولأن النصر يستحق أعظم الضرائب، فقد قدم الجيش جهاهاً عالية للاستشهاد، ومن الذين سقطوا في تلك الليلة بطل هذه الحلقة عبدالله بغدة المثقف العسكري والعسكري المثقف.

(٢٤)

جمال سيف

قال العرب: ثلاث تبين معادن الرجال.. الحرب، والفقر، وحب المرأة.

فمن صبر على الحرب غلبها، ومن ملك نفسه عند الفقر غلب الفقر وغلب مالكي الغنى، ومن ملك ناصية نفسه عند حب المرأة كان عقله سلطان قلبه وكان قلبه سلطان لسانه.

والذي يهتم في هذا الموضوع هو الحرب، فقد برهنت تجارب الشعوب أنها تشذب الزوائد من الحياة كما تُشذب الأشجار لكي تنمو أفضل، كما حقق الاستقراء أن الحرب تستنزف الدم الفاسد وتستنبت الأبطال، وأنها إذا طالت جلت الغيوم والغبار عن الوجوه الأصيلة وعن الشعب الحقيقي.

ولم يجرب شعبنا الحروب العامة إلا ثلاث مرات، مرة في غزوة إرياط بعد الميلاد بقرن واحد، ومرة في مصارعة الاحتلال العثماني في العقد الثاني من القرن العشرين، ومرة في حروب تهامة عام ١٩٣٤م وهي التي تسمت بحرب الانسحاب.

بعد ١٩٣٤م كانت الحروب مجرد عشائرية أو بيتية تشعلها أتفه الأسباب وتخرجها أولى المصالحات، حتى أهلّت ثورة ٢٦ سبتمبر استدعى الواجب الشعبي أن يحارب الكل. الشعب من

أجل كل الشعب. فتعبأت الجماهير من نفسها وتطوعت إلى المواقع.

في ذلك الحين تبدى أن الذي ولدوا في أول الأربعينيات هم الذين قاتلوا إلى جانب الثورة في صبيحة الستينيات، وكادت الحرب أن تكون احتكارية على الجيش وعلى بعض القطاعات القبلية حتى حدثت هجمة ديسمبر ١٩٦٧م على صنعاء.

هناك أعلنت التعبئة العامة نفسها فانجرفت المدارس والمتاجر والبيوت إلى المعركة، وكان شباب المدارس طليعة الطليعة، ذلك أن دروة خمس سنوات قد أنبتت جيشاً محارباً إلى جانب الجيش الذي ثار وحارب الحروب التي تصدت للثورة.

في عام ١٩٦٧م أشعل المعركة الذين ولدوا في الخمسينيات، إذ أصبحوا تلاميذ في أول الستينيات، وتلاميذ محاربين بعد منتصف الستينيات.. فقد شكلت المقاومة الشعبية عماد القوات المسلحة والأمن، إذ كان عدد الجيش والأمن لا يزيد على ١٢ ألفاً ضباطاً وجنوداً.

وقد كانت الهجمة مفاجئة أي في غياب القوات القبلية التي قاتلت إلى جانب الجيش والأمن، فكان شباب المدارس هم الجيش الثاني أو السند الأول للجيش، وكان شباب الثانوية في ربيع القوى الجسدية وفي صيف القوى العقلية، لأنهم دخلوا المدرسة تحت ضوء جديد وفي ظل تعليم ثوري وفي عصر ثقافة ثورية، فكان الطلاب في مستوى المهمة وعياً وعملاً.

وكان ضباط الجيش في غاية شرف المسؤولية في حسن تدريب الطلاب، فلم يزجوا بهم إلى الحروب من أول أسبوع كما فعل الضباط الأوائل في أواخر ١٩٦٢م حين زجوا بالحرس الوطني قبل أن يملك أساليب القتال.

ولعل بطل هذه الحلقة جمال سيف نموذج هام من النماذج البطولية الثقافية.

* * *

التحق جمال سيف بالثانوية العامة بصنعاء عام ١٩٦٦م عن إعدادي أخذه في الحديد وصدقت عليه مديرية التربة بتعز. لأنه تعلم الإعدادي في مدينتين.

وكان في بداية عهده بالثانوية قارئاً ثاقب الاختيار كما دلت مذكراته، لأنه قال لأحد أساتذته العرب عام ١٩٦٦م: "ليس كل كتاب ثقافة، ولا كل حبر على ورق يصلح للقراءة، يجب إثارة الثقافة المختارة".

وعندما تجند كان ملماً بتواريخ المقاومات الشعبية التي عاصرت المقاومة الشعبية اليمنية والتي سبقتها.

تعين مع دفعته في المقاومة التي عسكرت بالمطار وقال: "بعد أسابيع لن نحتاج إلى حماية المطار، لأننا سنضطر إلى الدفاع عن المدينة. قيل له ولماذا؟. قال بعد أيام ستقصفنا الطائرات كما تقصف اليوم الثوار الفيتناميين" وهذا القياس يدل على متابعة أحداث العالم ومعرفة تشابه الأحداث مادام صانعها عدو واحد.

أراد جمال سيف، أن يسجل كل ظاهرة انتصار وكل بطولة نادرة فكان يسجل ما أمكنه التسجيل ويبعثه إلى مجلة الجيش.

كتب مرة رسالة مطولة عن عبدالله محمد العلفي، كيف خاض الغمار وهاجم معسكراً يُعدُّ أفرادَه بالمئات ثم رجع وضل الطريق ووقع في كمين ثم تماوت فظن الكمين أنه قد مات، وعند بزوغ الشمس جاء عبدالله محمد العلفي سليماً معافى ولكن منتصراً، فقد أوقع الهزيمة في المعسكر الذي كانت تصل قذائفه إلى المطار. تلك أيام جمال سيف في المطار.

* * *

انتقل جمال سيف من المطار لأسباب غير معروفة، وربما كان السبب تركيز الهجوم على الأزرقين الذي انتقل إليه، وكان فيه كما كان شجاعاً مستزيداً خبرة.

تذمر زملاؤه في الأزرقين، من البندقيات التشيكية، لأن أضواء رصاصها تدل العدو، فقال جمال سيف: "لكننا نلاحظ العدو يطمع في البندقية التشيكية أكثر مما يطمع في غيرها، عندما نقذف رصاص البنادق التشكيلية لن يبقى عدو يطمع في بنادقنا"

وكان يعوّل على قائد الموقع في سرعة هجومهم على معسكر الأعداء، كما دلت قصيدة بعثها من الأزرقين إلى مجلة الجيش.

التي يذكر فيها انتظار أوامر الهجوم من ضابط يسمى هزاع، والقصيدة كثيرة الزحافات والعلل إلا أن فيها أبياتاً مستقيمة الأشطار، وأن اختلفت بعض البحور.

كقوله..

وستين ليلة في الأزرقين تأكدوا لا بد أن تنتصر
نَقُولُ يا هزاع هاجم بنا في أي حين ما الذي ننتظر
البندقيات بأيماننا بأي عذرٍ بعدها نعذر

ويقول زملاؤه إنه كان حلو الحديث يطرح آراءه بلا تعصب
وإنما كان مقنعاً ومسلماً. ويقص عن نفسه أنه دخل الابتدائي
وعمره ١٠ سنوات وأن قامته كانت تساوي قامة الأستاذ.

ولم يأنف أن يتعلم في الابتدائي مع من هم أصغر منه سناً. أما
في الثانوية فقد كان يبدو في التاسعة عشرة أو العشرين، إلا أن
بعض الناس يبدون أصغر من سنهم أو أكبر.

وليس المهم السن فقد كان جمال سيف بفهمه وتفهمه يبدو في
الخمسين، نتيجة وفرة أخباره ولباقة حديثه ودرايته بالأحداث
ونتائجها.

* * *

لم يدخل جمال سيف الحرب بمجرد العدوى الثورية، ولا بدافع
ضرورة الدفاع عن الوطن، وإنما يبدو أنه اختارها كما كان
يختار مقروءاته من الكتب وأصدقائه من الناس، لأنه كان يقاتل
عن دراية وينضبط عن فهم عسكري، وإن كانت له آراء فيبيديها
بعد أداء المهمات مع زملائه.

قال عنه أحمد سالم المعمرى، أنه مثقف وأنه يسمى بين زملائه بالشاعر.

وبعد أن انتقل مع دفعته من الأزرقين إلى الهجوم على عيبان عقد زملاؤه أمسية يؤبنون فيها الشهداء من الجيش والجيش الشعبي والمقاومة.

وطلبوا من جمال سيف أن يقول قصيدة، فقال لن أقول قصيدة ولكن أكتب رسالة إلى الشهداء..

"ها نحن نغادركم من الأزرقين إلى عيبان وأخبركم أن طريق الحديدية على وشك الافتتاح، فقد وقع الأعداء بين قوتين من قواتنا.. جاءت قوة من الحديدية وقوة ستهاجم من حدة وصنعاء... بمناسبة الحديدية وصنعاء أسألكم هل في العالم الثاني الذي تسكنونه بر وبحر..؟ إذا كان هناك بحر فابعثوا لنا سمكاً فقد انعدم في صنعاء هذه الأيام، ربما يتبعكم منا كثير، فالمعركة شرسة وهناك دانات تصل إلى صنعاء، بالمناسبة أسألكم هل في العالم الذي أنتم فيه دانات أو مدافع؟ وهل هناك جمهوريون وملكيون؟ أوصيكم جمهوروا مرة ثانية ولو في القبور.. لقد تظاهروا معاً ضد اللجنة الثلاثية التي جاءت للتصالح في أكتوبر وبمناسبة ذكر الجامعة العربية التي بعثت اللجنة، بودي أن أسألكم هل في عالم الموتى جامعة عربية وأمم متحدة ومجلس أمن..؟ أفيدوا والسلام.

الدفعة السابعة .. جمال سيف.

ظن المعسكر أنه كان ينكت أو يتفكه بعجز المنظمات الدولية
عن إحلال السلام، وقل من فطن إلى أنه يقوم سياسة العالم من
خلال المقارنة بين الحياة والاستشهاد.. وبعد تأبينه زملاءه بليلة،
سقط جمال سيف ليلة أول هجوم على عيبان كاتباً بدمه ملحمة
الخلود وشهادة النصر التي لا تمحي.

سعد علي الأشول

كان تعليم قادة الجيوش والخلفاء موحداً، إذ كان يتألف من كتب النحو والبلاغة وأيام العرب.

كما كانت الثقافة تتألف من التاريخ والأشعار وأقاصيص العرب، وكان التعليم يدنو من الثقافة، لأن النحو والبلاغة من أدوات فهم الكتاب والسنة والأخبار والأشعار، وكان المادحون من الشعراء يمتدحون الخليفة والوزير والقائد بالأنماط المدحية المعتادة، لأن القائد على عسكريته كان في مستوى الخليفة تعليماً وثقافة، ذلك لأن الحرب سياسة، كما أن الخلافة إدارة السياسة.

كذلك في أوروبا كان الملوك والأباطرة يتعلمون كقادة الحروب، كما يتعلم القادة كالملوك والأباطرة أما الثقافة فكانت تتولاها البابوية الكنسية.

وهذا يدل على ترتيب الأولويات، فالتعليم أساس الثقافة، والثقافة من أساسيات السياسة، لأن الزعامة فن تعليمي وثقافي يقتدر على متابعة السياسة وأطوار المحكومين.

لهذا كان الخلفاء يبعثون أبناءهم إلى البوادي لتعلم اللغة والفروسية والصيد وخشونة المعيشة، لأن تعليم المدينة كان

مقصوراً على المدونات، كما كانت الثقافة مقصورة على المرويات والمدونات والمترجمات من فلسفات الأمم وعلومها. فظل التوسع في التعليم والثقافة من مميزات الزعماء وقادة الحروب ومن سر تفوقهم.

وتواصل هذا التقليد في دوائر الحكم والقيادات العسكرية عسراً فعسراً، ولما تعددت التخصصات في عصرنا، تباينت المذاهب الثقافية ونزعات المثقفين، فكان يقال في العشرينيات إن للسياسة رجالها وللعسكرية أبطالها، وذلك لتعدد ميادين التخصصات التعليمية، فقد كان الذي لا يتعلم لا يحقق الوصول إلى منصب في قيادة الجيوش أو اقتياد السياسة أو تسيير الإدارة.

ذلك لأن جيوش العصور القديمة كانت لا تحتاج التعليم المعقد لبساطة أسلحتها الوراثية من السيوف والرماح.

أما في عصرنا فقد أصبحت العسكرية علماً، لأن السلاح الجديد بتعقيداته استدعى التعليم والتخصص في هذا الفرع من العلوم.

غير أن التخصص لم يشكل قيماً، وإنما دلت التجارب أن المتخصص الواسع الثقافة يضيف إلى تخصصه تحقيق وجوده البشري واتساع دائرة تخصصه، لهذا استزاد الزعماء والعسكريون من الثقافة وصناعاتها من أمثال يوسف السباعي صاحب الروايات الغزيرة عن الثورة المصرية، ومن أمثال صالح مهدي عمّاش الشاعر المؤرخ، ومن أمثال مصطفى طلاس صاحب المؤلفات التاريخية والأدبية والدينية والقيادية.

ذلك أن العسكرية أقرب إلى الأدب، لأن كليهما ينبع من الحماس والبطولة. إذ لا تقل بطولة اللسان عن بطولة الزنود، كما عبر الحربي المشهور محمود سامي البارودي.. وقبله أبو فراس والمتنبي، وقد كان شباب الكلية الحربية بصنعاء في الأربعينيات يتحمسون بالشعر ويؤدونه أناشيد تتلاءم مع حركاتهم وتهيج نفوسهم.

ومن النشيد الذي كان يؤديه طلاب الكلية الحربية قصيدة المتنبي...

لا افتخارَ إلا لمن لا يضامُ مُدركٍ أو محاربٍ لا ينامُ

وكانت الدفعة الأخيرة في الأربعينيات تجمع بين الثقافة النظرية وبين التعلُّم العسكري، إلا أنهم واجهوا تغيرات كادت أن تعصف بهم، إلا أنهم عصفوا بها بالصبر والجلد.

تخرجت هذه الدفعة في سنة انقلاب ١٩٤٨م فانسأقت إلى سجن (حوش دهاق) مدة من الوقت ثم انتقل بعضهم إلى سجن القلعة مدة عامين، وفي عام ١٩٥٠م سخرهم الحسن لشق الطرق الصعبة في رأس الغولة.. في ريدة.. في خولان.. وفي كثير من المناطق.

وكان أنبه تلك الدفعة علي محمد النعامي، محمد عبدالله العلفي، وبطل هذه الحلقة الشهيد سعد علي الأشول.

* * *

نشأ سعد علي الأشول في الروضة في بيت العمل النقي والفقر الشريف، إذ كان والده حداداً لا يكسب في يومه إلا قوت أهله، لأن مهنة الحدادة في ذلك الحين كانت شحيحةً، لندرة النقود في أيدي الناس، فلا يحتاج الفلاحون إلى الحداد إلا لإصلاح المحاريث الضرورية للحرث والمناجل الضرورية للحصاد وقلّ من يصقل خنجراً أو يحد مديّة.

وبهذا كان علي الأشول والد الشهيد سعد الأشول لا يكتسب غير الضرورات اليومية لبيته، وإذا تعطل عن الشغل تعطلت الأفواه التي يعولها عن الأكل.

وعندما مات علي الأشول كان لموته وقع الصاعقة عند أهل الروضة، لأنه ترك صبياناً لم يبلغوا سن التلمذة ولم يترك لهم قوت يوم واحد، بل لم يُخلف ثمن تجهيزه إلى القبر.

في هذا البيت تربى سعد علي الأشول وأخوه صالح الأشول فكانا من الثوار اللامعين بطولة وثقافةً ووطنية، لأن الفقر الذي ربّى الأنبياء والقادة رباهم من أيام غضارة العود ولين الصِّبَا.

وكان سعد علي الأشول في الخمسينيات ينتقل من طريق إلى طريق، يكدح في شقها مع زملائه خريجي الحربية مقابل ثمن ريال ماري تيريزا لكل واحد.

ومن العجيب أن أولئك الأبطال الذين تخرجوا من الكلية الحربية عام ١٩٤٨م تحولوا إلى مثل هذا العمل الخلاق، لأن شق الطرق أعطى خبرة جديدة وجدّر في أولئك العسكريين الخشونة

وحب العمل، إذ تابعوا شق الطرق مدة ثلاث سنوات، ثم تغير مجرى حياتهم كما سوف نرى.

* * *

في عام ١٩٥٣م وصل سعد الأشول ومحمد عبدالله العلفي إلى تعز باحثين عن وجودهما العسكري، الذي تعلّموا له وتخصصا فيه، فبعث الإمام أحمد سعد الأشول ومحمد عبدالله العلفي أميرين على معسكر حريب، كما بعث محمد الحمزي إلى قعطبة، وكان الأشول والعلفي لا يُصدران كل الأوامر إلى أولئك العسكر، لأن مدير المنطقة (العامل) هو الذي يمثل المقام الشريف عند المنطقة وعند العسكر.

غير أنه كان يجد في الضابطين العلفي والأشول مشجباً إذا شغب عليه العسكر.

وفي عام ١٩٥٤م تأخر مرتب المعسكر مدة شهرين فشغب على العامل فطلب الإمام المعسكر كله من حريب. وقيل إن الأشول والعلفي دبرا مع العسكر اغتيال الإمام باعتباره السبب في تأخير المرتبات، إذ كان لا يُصرف شيء إلا عن أمره وكان العسكر يعرفون هذا.

غير أن الإمام شم ذلك التدبير أو احتاط كعادته فلم يقبل طلب أولئك العسكر بمقابلته وإنما تركهم في العرضي حتى شنتهم في المناطق، واختار لهم المناطق الأنفع دخلاً مثل عتمة ووصاب وريمة وإب. وظل سعد الأشول والعلفي في انتظار القرار

الإمامي بنقلهما فانتقل محمد عبدالله العلفي ضابطاً على مستشفى الحديدة، وظل فيه حتى محاولة اغتيال الإمام مع اللقية عام ١٩٦١م، أما سعد الأشول فظل بتعز حتى التحق بمدرسة الأسلحة عند افتتاحها عام ١٩٥٨م، وظل فيها إلى ثورة السادس والعشرين من سبتمبر وكان سعد الأشول أحد وجوه الثورة المشرقة.

* * *

تميز سعد الأشول ورفاقه بالاستزادة من الثقافة وقراءة الصحف ومتابعة الأخبار العالمية، وكان تعليمهم في الأربعينيات يؤهلهم للتوسع في التنقف، بل إن أولئك العسكريين اتصلوا بحلقات الدروس في الجوامع وحصلوا على تعليم فقهي ولغوي، من أمثال عبدالله اللقية، أما سعد الأشول والعلفي فقد كانا أشد ميلاً إلى الكتب الثقافية.

وبعد ثورة ٢٦ سبتمبر تبدت الحاجة إلى الثقافة عند العسكريين، لأنهم بعد الثورة أصبحوا مرمى الأنظار، إذ أحاطت بهم أسئلة الصحفيين عن مبررات الثورة وعن اختيار ذلك الوقت لقيامها، وعن النوايا السياسية التي ينتوونها.

وكان سعد الأشول لبقاً في إجابة الأسئلة على دراية بمغزى كل سؤال.

سألته صحفية لبنانية تحرر صحيفة اسمها المدفع.. لماذا قمت بالثورة في هذا الأوان الذي شكّت فيه الشعوب بجدوى الثورة؟

فرد سعد الأشول: "لم أقم بها وحدي وإنما قام بها الشعب، ولم تُخلص الشعوب من الفساد السياسي والاستعمار إلا الثورات المسلحة، ولم تشك الشعوب في الثورات وإنما شكك فيها أعداء الشعوب".

فقد كان سعد الأشول بعيد النظر بتمييزه الشعوب من أعداء الشعوب، لأن أعداء الشعوب محسوبون عليها، لأنهم من أبنائها وأعمالهم ضدها.

وكانت هذه الفكرة من سياسة أول الستينيات. وكان الكتاب الثوار يقاومون الدعاية الاستعمارية، وعملاء الاستعمار في داخل الأوطان، وكان سعد الأشول على صلة بالكتابات الثورية التي تعبر بصدق عن الشعوب.

اتقد سعد الأشول بالحركة الدائبة، فكان.. في مكتب العمليات في القيادة.. في إعداد المدد إلى المواقع.. في أكثر المواقع حرجاً، ثم خرج إلى القتال فخاض عدة معارك في حروب الثورة.

وكان النصر حليفه في كل معترك، لأنه كان يعرف البلاد قبل أن يعرف روائح الثورة، وكان على دراية بأكثر المناطق التي عمل في طُرُقها، فقد كان ذلك العمل الذي كابده في أول الخمسينيات بمثابة سياحة في الشعب واستبطان لنفسيته. بالإضافة إلى هذا فإنه كان أمير بلكات في أكثر من منطقة فزادت معارفه بالشعب في وقت الاحتياج إلى المعرفة، لأن قيمة كل عظيم عند الاحتياج إليه.

وهذا ما فطن إليه سعد الأشول أيام كانت الثورة تحارب الحروب، وأيام كانت تمثل إشراق الوجه الدفاعي أمام الوجه العدوانى.

وكان سعد الأشول من الجمهوريين الذين يرون استمرار التجربة الحربية، ولا يقبل التصالح نفسياً، باعتباره يجهض التجربة الحربية ولا يوصل إلى سلم متوج بالنصر.. وكانت أفكار سعد الأشول الثورية، معروفة كمعرفته بأساليب الثورات.

* * *

دلت أفكار سعد الأشول على بعد نظره، فقد كان رأيهِ أن التصالح مع الفلول البائدة يمحو جهد الثورة التي فرس الشعب طريقها بآلاف الجماجم والجباه.. ودلت على بعد نظره هجمة الفلول البائدة على صنعاء في ١٩٦٧م لأن الفلول البائدة كانت تدّعي أنها لا تحارب الجمهورية والجمهوريين وإنما تحارب الوجود العسكري المصري.. فدلت تلك الفلول بهجمتها على صنعاء عام ١٩٦٧م على أنها تستهدف القضاء على النظام الثوري، لأن تلك الهجمة حدثت بعد انسحاب الجيش المصري كلياً.

لهذا استمات الثوار والشباب وتعبأت كل الجماهير للدفاع عن صنعاء، حتى حاصرت قوات صنعاء الحصار وغدّت جذور الثورة بأعلى الدماء.

وكان سعد الأشول يعي مسؤولية حماية الثورة وتغذيتها بالاستشهاد، فقاتل في الخطوط الأمامية في حرب السبعين يوماً الشهيرة أشد قتال.. إلى جانب الأفكار القيادية التي كان يشترك فيها مع زملائه.

ولكنه لم يستلذ مكتباً قيادياً، وإنما استطاب حرارة الميدان ونار الالتحام، فقاتل حتى دفع حياته الغالية للوطن الأعلى في معركة همدان في يناير ١٩٦٨م.

محمد عبدالعليم البركاني

كانت الأربعينيات أعنف السنوات في العالم كله، لأن العالم تحول إلى ميدان حرب، أو متوقع حرب، حتى الأقطار النائية عن مسرح النار والاقত্তال فإنها عانت حرب الأسعار إلى جانب توقعها امتداد حرب النار.

لأن الحرب تبدأ في مكان وتمتد إلى أقصى الأماكن، وتبدأ في زمان ولا يستطيع أحد أن يحدد زمن نهايتها، لأنها تعرف بدايتها ويعجز قادتها عن وضع ختامها.

وبالأخص حرب الأربعينيات التي غيرت المقاييس، فقد كان المشهور أن العرب هم أمة القتال وهمجية الاقتتال، فانعكست الآيه أمام العصر عندما اشتعلت الحرب بين أوروبا وأوروبا بين الحلفاء والمحور.

هذا في عصرنا أمّا في العصور القديمة فإن أغلب الحروب التي خربت وأيّمت ويثمت كانت بسبب العدوان الأوروبي الذي كثر عن أنيابه في الشرق مرات متعددة مثل غزو الاسكندر المقدوني قبل الميلاد الذي وصل الهند مروراً بمصر وفارس.

أما الغزوة الثانية فكانت تحت الصليب في القرن الحادي عشر ميلادي، إذ غزت أوروبا الشرق باسم حماية المسيحيين في

الشرق.. فكان مسيحيو الشرق من ضحايا تلك الهجمة، أما الغزوة الثالثة، فمعروفة بالحملة النابليونية التي جاءت بأفك الأسلحة، وقاومها الشرق، أما الحملة الرابعة فتعددت أسلحتها وجيوشها، إذ حاولت فرنسا وبريطانيا اقتسام العالم الثالث وانتزاعه من أهله ومن الغزاة السابقين كالبرتغال وأسبانيا.

فكل الولايات الحروبية جاءت من أوروبا لامتداد وجودها ولتسخير العالم أسواقاً لها، إذ كانت تنتزع المواد الخام وتردها في شكل مصنوعات تبيعها بأفدح الأثمان!!

وكانت الحرب العالمية الثانية بين أوروبا وأوروبا، أمل خلاص من المستعمرين، لأنهم اشتغلوا بقتال بعضهم فأراح الله منهم الشعوب المستضعفة. غير أن تلك الحرب كانت من أجل امتداد النفوذ واقتسام العالم الثالث.

وكانت الحرب العالمية الثانية أشرس الحروب، لأنها أول حرب استعمل الأميركيون فيها أول قنبلة ذرية ضد مدينتين يابانيتين هيروشيما ونجازاكي، فأبادت البشر ودمرت العمران فيهما. وكانت اليمن بمنجاة من تلك الحرب، إلا أنها كانت عرض الاستعمار للاستيلاء على باب المنذب، فقاومت السلطة اليمنية هذه الإرادة الإنجليزية باعتبار أن الذي يريد العسكرية في باب المنذب كان محتلاً للشطر الجنوبي من اليمن وعلى نية الاحتلال للشمال، لولا مناعة جباله وووعة مسالكه.

لهذا كانت الأربعينيات فترة الأخطار، كما كانت وحشية حروبها أشنع وصمة في جبين عصرنا العظيم، وبما أن الحروب مدمرة

فهي منبّهة.. غير أن الشعوب المستضعفة لا تستثمر خير الحرب إلا بعد مكابدة شرورها.

نشأت في الأربعينيات أول معارضة سياسية منّظمة في الشطر الشمالي من اليمن، وفي ذلك العهد أيضاً سقط المواطن الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني كاستعمار مقيم ينفذ خطط الاستعمار الراحل.

وهكذا أثمرت ظروف الحرب أمراً الثمار وأطلعت أولى البشائر في وقت واحد. إذ تحفّزت الشعوب للتححرر من الاستعمار وقواعده من الحكومات العميلة.. وأرادت اليمن أن تدخل العصر السياسي، عصر الحرية وحكم الجماعة، أو حكم النُخبة الثقافية، بدلاً من حكم البيت الواحد، فهذا التمحُّض والخلط بين قرون المآسي وأوائل البشائر شكل فترة مغايرة للعشرينيات والثلاثينيات. ففي عام ١٩٤٨م قامت أول محاولة دستورية وسقطت بعد عشرين يوماً، لأن فترة التغيرات الملاحقة تبني بيد وتهدم بيد، كالإعصار الذي يجمع ويشتت ما جمّع... غير أن بعض الفترات تؤسس ما بعدها، المهم أن التغيرات أسست الحس بالتغيير وأقلقت الاطمئنان النائم على البراكين.

وفي هذه الفترة كان مولد ثوار سبتمبر أو أكثرهم، لأن الذين ينشأون في زمن التحول يملكون قيادة نهر التحولات، عندما ينتقلون من الإرهاصات إلى الفعل. ففي هذه الفترة نشأت المحاولات وسقطت لكي تقوم المحاولات التي تبلغ غايتها.

ساق إلى هذا زمن ميلاد بطل هذه الحلقة.. محمد عبدالعليم البركاني المولود عام ١٩٤٦م في قرية شمير ناحية جبل حبشي. وميلاد بطل منتظر دليل على بطولة شعب آت، لأن الفرد مجرد نبتة في دوحة الشعب الذي يتأهب للانفجار الربيعي.

* * *

نشأ محمد عبدالعليم البركاني في ظل والده عبدالعليم البركاني، فلم يقصد في صباه مدرسة بتعز أو صنعاء، لأن بيوت المتعلمين مدارس، فتعلم على يد أبيه التعليم الابتدائي من أوله، إلى جانب ذهابه وإيابه إلى معاملة تقليدية كابتدائية من فصل واحد.

وعندما بلغ محمد عبدالعليم العاشرة بدأ يتعلم الفقه وأصوله والفرائض على ترتيب كتب هذا الفن، إذ كانت كتب الفقه تبدأ بالمتون الصغيرة الميسرة نسبياً ثم تنتقل إلى الشروح المطولة، ثم إلى الشروح الأكثر تطويلاً.

وكان التعليم في أي منطقة من مناطق اليمن مزيجاً من المذهبين لتقاربهما، ولانتسابهما جميعاً إلى الشريعة المحمدية، فكانت بيوت الشوافع تقرأ فقه الأئمة، كما كان الأئمة يقرأون الفقه الشافعي، إذ لا فرق بين الرُّبْدُ للشافعي والبحر الزخار لأحمد بن يحيى المرتضى في غاية التأليف والوضع، فكلها كتب سلفية فقهية كان يعرف الشيوخ كيف يعلمونها عن طريق تفسير النص للتلاميذ.

وعلى صعوبة هذه الكتب، فإن صعوبتها كانت سبب الاستفادة منها، لأن التكرار يروض الحافظة على التقبل ويُمرّن الذاكرة على الامتلاء، وهذا ما تربى عليه محمد عبدالعليم من منتصف الخمسينيات إلى عام ١٩٦٣م.

* * *

في عام ١٩٦٣م تدافع الشباب إلى الحرس الوطني، وبعد أداء مهمة سنة أو شهور رجع البعض إلى بيته وانضم البعض إلى الجيش واغترب البعض خارج البلاد، وذلك لأن وجود العسكرية المصرية، التي تزايدت حتى وصلت ٩٠ ألفاً خفف على البعض مهمة القتال، أو تنحى البعض بمقتضى أغراض سياسية كانت تفرزها ظروف الحرب.

غير أن الشباب الذين نزحوا بعد أن أدوا الواجب في الحرس الوطني رأوا انفتاح المجالات في الوطن، إذ انفتحت في عام ١٩٦٤م ثانوية حديثة وكلية حربية على أحدث تعليم.

وكان بطلنا من الذين نزحوا مدة عام ونصف العام، ثم عاد مزوداً بالتعليم السّلفي وبأوائل التحديث، والتحق بالكلية الحربية بالروضة عام ١٩٦٥م.

وما كاد يقضي في الكلية عامين حتى نشبت حرب السبعين يوماً شتاء عام ١٩٦٧م، وفي تلك الفترة تبدى بطلنا شجاعاً من جملة الشجعان أبناء الكلية الحربية.

كان طلاب الكلية في عامي ١٩٦٥م، ١٩٦٦م يشتركون في القتال مدة أيام أو أسابيع، أما أبناء الكلية في ١٩٦٧م فقد تحملوا واجباً عسكرياً كامل المسؤولية، إذ عسكروا في جبل نقم الذي كان أهم أغراض الهجوم العدواني، وأثبت طلاب الكلية الحربية بقيادة مدير الكلية محمد علي الجبري كفاءة فذة في الذود عن نقم وصد الغارات العنيفة عنه، فقد كان عرضة الهجوم وأول أطماع الأعداء لإشرافه على مدينة صنعاء، وكان يترتب على سقوطه سقوط العاصمة، لو لم يكن هناك مقاومة شعبية معدة لحرب الشوارع، وما كان يتصور أحد أن طلاب الكلية الحربية، سيقندرون على دفع تلك السيول من الهجوم المدجج بأفتك الأسلحة.

غير أن طلاب الكلية الحربية أحبطوا العدوان من أول ليلة من ليالي ديسمبر ١٩٦٧م، إذ ردوا الهجوم الكثيف على أعقابهم ولم يتوقفوا عند صد الهجوم، بل هاجموا المهاجمين واغتنموا وفرة من الأسلحة.

ومن ذلك الحين سطع نجم الكلية الحربية كقوة قادرة على القتال وعلى حماية أهم المواقع الدفاعية، وكان محمد عبدالمعطي البركاني من المعروفين بخوض الغمار وبالدراسة بكيفية المغامرات.

* * *

ظل طلاب الكلية الحربية ثابتين على جبل نقم وكأنهم جزء من أحجاره ومن هضابه، وبعد أن انجلت الغمرة وانقشع الحصار،

عاد طلاب الكلية الحربية إلى كليتهم فأنهوا دراستهم ثم توزعوا في مراكز قيادية.

فتخرج محمد عبدالعليم عام ١٩٦٩م، وتعين قائداً مظلياً على معسكر المظلات في أكثر من منطقة من عام ١٩٧٠م إلى عام ١٩٧٤م، ثم انتقل إلى صنعاء حيث شغل إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي فحدث أساليبها ثقافياً وعسكرياً، فكوّن المسرح العسكري، وبعث من الشؤون دفعات للتخصص في التصوير والإخراج حتى كادت إدارة الشؤون العامة أن تتحول إلى أهم مؤسسة ثقافية، إذ أحييت الأمسيات الأدبية والفنية وطورت المسرح العسكري.

صحيح أن نواة هذه المشاريع تشكلت عام ١٩٧٠م إلا أن محمد عبدالعليم اهتم بتطويرها وبعث طلاباً للتخصص في الإخراج وفن الدعاية التوجيهية وعلم النفس العسكري.

غير أن مشاريعه لم تنجح كلها، وكان شديد الإصرار على رأيه عنيداً في كل مواقفه، فتخلّى عن الشؤون العامة بعد عام ونصف العام وعاد إلى معسكر المظلات.

* * *

وفي عام ١٩٧٦م كان محمد عبدالعليم ينتقل بين المعسكرات خارج صنعاء، وبين منطقته وصنعاء، فحدث غير المنتظر...!! كان يود محمد عبدالعليم البركاني أن يلاقي موته في معركة أو أن يُحَيّ بدمه تربة موقع دفاعي أو هجومي، غير أن الذي

حدث هو غير هذا، إذ لاقى موته في حادث سيارة بين زمار
وصنعاء عام ١٩٧٦م، فمات البطل في غير مزدحم البطولة
الذي خاضه، وفي غير معترك النار الذي أجبه مع رفاق سلاح
دفاعاً عن صنعاء وكسراً لقوة العدوان الذي أراد حصارها،
فانحصر في عدميته.

(٢٧)

علي محمد عبده

كان اليمنيون على أشد رغبة من كل الأجانب عملاً بمثلهم "ما من دخیل عافية.. لوجاء بزاده وماه" وربما كان للاحتلال التركي دخلٌ في ارتياب اليمنيين بالأجانب، لأنهم شاهدوا مجاميع من العسكريين الأتراك المنتفخين الذين لا يفهمون ما يقال ولا يقولون ما يفهم.

إذ كانت الإستانة تجعل من الأقطار البعيدة شبه منفى لغير المرغوب فيهم من الضباط، بهذا تأكدت الشكوك بالأجانب من جهتين.. وصولهم إلى الوطن أو وصول أهل الوطن إليهم.

وباستمرار الوقت تبدى للإنسان اليمني أن في الناس خياراً وأشراراً وأن الأجانب كسائر الناس فيهم الطيبون والخبثاء، وأن الخصوصية المحلية لا تمنع من الاشتراك في المفاهيم العالمية والتجارب البشرية، غير أن الحكم الذي قام بعد الأتراك ركز في سياسته على نقطة الخوف من الأجانب فزاد من الأخبار السيئة عن الأجانب وعن فجورهم وإباحاتهم، فتزايد الاشمئزاز من كل أجنبي .

وربما كانت هذه السياسة مُعاكسة لدعوة الدستوريين الذين تبنوا الوحدة الإسلامية، وعندما استدعت الحاجة رحل بعض اليمنيين

إلى خارج الوطن ورجعوا بعد فترات متفاوتة مختلفين عنهم قبل سفرهم، بل رجع بعضهم منتفخ الجيب بالنقود، متغير النظرة إلى الحياة فأغرى الواصلون المقيمين بالرحيل، فتزايدت أعداد المغتربين وبالأخص إلى أفريقيا.

وجاءت الحوالات تلو الحوالات فاشرب اليمانيون في الريف إلى الخارج. أما أهل المدائن فكانوا يعرفون تقدم الأجانب لأنهم يستهلكون ما ينتجون. وكان استهلاك المدنيين أكثر، أما الفلاح فلم يكن يشتري في الثلاثينيات والأربعينيات من المجلوبات إلاّ الملابس الضرورية وحديد الحراثة والقاز لإضاءة الليل.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية أصاب اليمن ما أصاب غيرها من قطع الوارد ومن ارتفاع ثمن المخزونات.. هناك اتصل الحس اليمني بالحس العالمي فعرف مضار الاستعمار وأسباب الحروب التي يشنها، سواء الذين هاجروا أو الذين تشبثوا بالديار، على أن هجرة اليمنيين كانت على ثلاثة ضروب.. ارتزاقية.. سياسية.. علمية.

ولعل الذين قصدوا طلب العلم عن نية وطنية كانوا عدداً قليلاً ولكن مباركا، ومن الذين هاجروا ابتغاء وجه العلم بطل هذه الحلقة الشهيد علي محمد عبده.

* * *

عاد إلى أرض الوطن علي محمد عبده عام ١٩٥٧م وقال كلمة حفرت في الذاكرة بمقدار ما أثارت الاهتمام، قال علي محمد

عبده: "غبت عن اليمن عشرين سنة ورجعت وكل شيء كما كان باستثناء سيارات شاحنة تحمل البضائع، وسيارات تاكسي في مدينة تعز خاصة"، وهذه الكلمة تعطي تاريخ هجرة الخريج الجامعي علي محمد عبده، فقد سافر من اليمن عام ١٩٣٧م وانتنى إليها عام ١٩٥٧م وهو يحمل ماجستير في الزراعة.. وكان جامعياً حقيقياً في مذكراته السياسية وفي مفاهيمه الثقافية وفي تساؤله عن الوسائل التي تحرك اليمن إلى الأمام، وكان شديد الاختلاط بالمتقنين وبالطلاب، باحثاً عن همومهم، وكان ملعب الثانوية بصنعاء هو الملتقى الوحيد للشرائح الثقافية إلى جانب الطلاب، وكان الطلاب والمتقنون يرون في علي محمد عبده بشائر المستقبل، لما عرفوا من همومه الوطنية وتساؤله عن التغييرات وعن المشاريع التغييرية التي تبرعت في تلك الأيام كبداية شق الطريق من الحديد إلى صناعاء، وكمد خطوط الهاتف والكهرباء في صنعاء.

وكان يقول علي محمد عبده: "لا ينبغي أن يخدعنا تغير الظواهر، فليس التقدم رصف طرق ومد خطوط هاتف وكهرباء، فتلك كبضائع يمكن شراؤها، وإنما الأهم من ذلك كله هو تقدم الإنسان اليمني ووعيه بالحياة وفهمه الوجداني للحرية."

وكانت هذه الأفكار تهز الوجدان لصدورها عن جامعي في الزراعة، ولحدوثها في حينها، ففي الوقت الذي كان المواطن يبتهج لتلك البواكير من المشاريع كعلامات مُعاصرة كان علي

محمد عبده ينتقد هذه المشاريع، باعتبارها سيراً من آخر الطريق، لأن الإنسان صانع الأشياء وليس صنيعها.

لكن للأشياء الحديثة إحياءاتها إلى الإنسان بمقدار إحياء الإنسان إليها.

غير أن علي محمد عبده كان علمياً في تفكيره، يهتم بالجزئيات كلها ولا يهتم بالكليات عامة، كالمفكر التجريدي، ولعل علي محمد عبده، اهتم بالتفكير لحدوث الانقطاع بين تخصصه وميدان الممارسة فلم يجد أمامه عقب تخرجه إلا وزارة زراعة أكثر ما تجهل هي الزراعة.

وكان وزير الزراعة يومذاك محمد بن حسين العمري وحوله مجموعة من الموظفين لا صلة لهم بتجارب الزراعة وأساليب تطويرها ونواحي علومها. إذ كان الوزير من بيت القضاء الشرعي ينتقل من منصب إلى آخر، كان محافظاً للحديدة وبجرة قلم إمامي أصبح وزيراً للزراعة.

وكان علي محمد عبده يحترم الوزير العمري، لأنه وجده متفهماً تطورياً، فوعده خيراً بتسهيل مهماته للقيام بجولات في الأرياف، ولم يتمكن علي محمد عبده من الزيارة، إذ اختطفته بساتين الأمراء بصنعاء، فكان يؤدي خبرته ويقول ليس المهم أن هذا بستان أمير، فهو قطعة من الشعب وسوف يعود إليه.

المهم أنه وجد مختبراً لتخصصه وعملاً يتصل بمهنته التي درس لها. لأن علي محمد عبده كان يريد أن يحيي تخصصه

بالمباشرة الميدانية. وكان هذا التخصص لا يمنعه من ثقافة سياسية ومن اتصال بالمتقنين السياسيين، فلمع اسم علي محمد عبده في عام ١٩٥٩م ككاتب مختلف الهموم عن الكتاب الجامعيين.

* * *

لعل علي محمد عبده كان موصول الوجدان باليمن وهو في مهجره، إذ لم تشكل غربة ٢٠ سنة قطيعة عن الوطن، لأنه عاد إليه وكأنه لم يغادره، إذ ظل واعياً التحولات والتغيرات في صميم المجتمع اليمني.. فقد كانت هناك تغيرات ملحوظة في مفاهيم الناس لم يعهدها علي من قبل اغترابه، وربما اغترب عن اليمن في أول سن الشباب، لأن غربة ٢٠ سنة تدل على أنه عبر مراحل التعليم كلها في مصر.

ربما تعلم الابتدائي في إب ثم هاجر في أول الشباب، وتخرج ووعيه يتقدم سنه بمراحل.. كما أشارت كتاباته التي نشرها من عام ١٩٥٩م إلى عام ١٩٦٢م، إذ كانت كل الموضوعات التي يكتبها عن الوحدة الوطنية في اليمن وعن تاريخ هذا التوحد في أحداث التاريخ وفي أساليب الفن والأدب، لأنه اتجه اتجاه العطشان إلى الكتابات اليمنية على قلبها يومذاك.. إذ كان أول ما نزل إلى المكتبات هو الجزء العاشر من كتاب الإكليل وقصيدة نشوان بن سعيد الحميري التاريخية مشروحةً على أيدي مؤرخين هما: إسماعيل الجرافي وعلي المؤيد.

كذلك نزل إلى المكتبات كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري في تلك الفترة.

وكانت هذه الكتب وما تلاها محور اهتمام علي محمد عبده، باحثاً فيها عن التراث اليمني وعن وحدة المواطن اليمني بشراً وأرضاً ومفهوماً.

وكان علي محمد عبده، على تخصصه في الزراعة، يبدو منقطعاً للثقافة، إذ تسارع نضج كتاباته التي كان ينشرها في جريدتي سبأ والنصر، ثم جريدة الطليعة في آخر الخمسينيات.

وكان يود علي محمد عبده أن يدرس في الثانوية أو المتوسطة ولم يقبل طلبه، فجعل من الصحافة منبره، وإذا بالمتخصص الزراعي يتحول إلى باحث اجتماعي وكاتب وطني من أعلى طراز.

وكانت كتاباته تشي بثقافته الإنسانية، إذ كان يكتب في الطليعة عن ثورة كوبا إبان تفجرها، وعن ثورة الجزائر، وكان يهمس من خلال تلك الكتابة بأن ما حدث خارج اليمن ممكن الحدوث في اليمن، لأنه كان يرى الطلائع المثقفة والطلائع العسكرية تنطوي على تغيرات وعلى نوايا ثورية.

* * *

عندما قامت ثورة ٢٦ سبتمبر تبدى علي محمد عبده من رجالها المرموقين فكرياً وسياسياً فتعين في أول تشكيل حكومي في عهد الثورة وزيراً للزراعة وأخذ يجمع شتات أفكاره ومعارفه

لإنعاش اقتصاد اليمن الزراعي، إلا أنه رأى نفسه في مكان الرمز السياسي وليس في مكان الزراعي العملي، فكتب في صحيفة الثورة مقالاً جاء فيه "لقد جاءت الثورة بالعهد الجديد فأين الكوادر الجديدة؟ لقد ورثت الثورة كل الأعباء وعليها أن تتحمل أعباء جديدة هي صنع اليمن الجديد، فإذا أبدعت المدافع الثورة فإن الكوادر الإدارية هي التي تبذل مسيرة الثورة اقتصادياً وثقافياً."

أحسن علي محمد عبده مسؤولية التغيير وقوة الوعي به، فأخذ يبحث عن الكوادر التي تنبثق من الثورة وتثري اقتصادها، وكان شديد الاهتمام بمسؤولية، لأنه كان يرى أن خير اليمن ينبع من أرضه وأن هذه الينابيع تتطلب الأيدي العلمية التي تفجر مملكة الأرض.

فأعد المشاريع ونشر كثيراً من مشاريعه وانطوى على نوايا مشاريع إلى أن تتحقق إمكانياتها المادية. ولم يكن ينتظر ما حدث، وإنما كان ينتظر رؤية اليمن وهو يموج سنابل وكروماً.

وفي رحلته إلى القاهرة منتصف عام ١٩٦٣م حدث غير المأمول بل عكس الأمل، إذ سقطت الطائرة التي كانت تقل علي محمد عبده بعد إقلاعها من مطار القاهرة فلاقى مصرعه مع كل ركاب الطائرة.

وكان موته الفاجع منسياً، لم يرَ عنه خبر ولا تردد صدى، حتى لم ينشر الإعلام المحلي خبر موته، نتيجة التحفظ المعاكس

للإعلام الملكي الذي ردد مقتل علي محمد عبده مصحوباً بتهمة المصريين لمحاولة إيقاع الخلاف بين الجمهوريين والمصريين.

فظل علي محمد عبده منسياً، بعد أن شغل ست سنوات بالحركة الشبابية والتدفق الحي والفكر الوطني والعمل السياسي والتوجه الثوري، فما أحقه اليوم بإعادة ذكره كنموذج فريد من النماذج الثورية.

(٢٨)

حسين الزين

عندما تلوح ظاهرة تدل على أمثالها ونظائرها التي لم تلح للرؤية، لأن استيعاب كل الظواهر واستخلاص كل حقائقها أقوى من مجهود الفرد المتتبع.

وإذا لاحظنا ظواهر المعاصرة في بلادنا فسوف نراها في ظاهرة التجارة أولاً.. إذ كان المواطن يبدي اندهاشه أمام نتاج الدول المتقدمة، فيستغرب أن حبة الأسبرين تزيل الصداع وأن مقداراً من المذرور يسمى الملح الإنجليزي يلين المعدة، وأن قطرات من القاز تضيء الليل، وكانت تقول أجيال الثلاثينيات والأربعينيات أن صنع هذه السلع وأشباهها جاءت من خدام الحياة.

وبعد أيام تغير المفهوم فتبين المستنيرون من المواطنين أن تلك التجارات من الأدوية والأغذية والأكسية عمل تجاري، وأن وجود المستهلك سبب ثروة الصانع، ولولا تخلف المستهلك لما تقدم المنتج.

فالظاهرة التجارية أولى ظواهر المعاصرة، ولكنها دلت على ظواهر غير مرئية أو غير قريبة من الرؤية، حتى وصل التأمل إلى ظاهرة الاستغلال من التجارة فكشفت هذه الظاهرة عن

وجهها السياسي، فتبدى أن المستعمر يريد إبقاء المتخلف على تخلفه لكي يستهلك ما صنعه المتقدم الذي يستمر في تقدمه.

كذلك أخبار الحروب فإنها أشارت إلى أن انتصار هذا على ذلك، مصدر القوة السياسية التي وراء السلاح، فبعد هزيمة ألمانيا استنقذ المواطنون الاستعمار الإنجليزي لأنه هزم هتلر فكانت هذه ظاهرة خوف من ذلك الذي هزم الألماني، فكيف تهزمه الشعوب العزلاء التي تريد أن تتحرر من نيره؟!!

وكانت هناك ظواهر مواكبة لهذه الظاهرة وتالية لها، إذ تمكنت الهند من التحرر بعد هزيمة ألمانيا بعامين، فدل هذا النصر الشعبي الهندي على ظاهرة جديدة معاكسة لسوابقها هي إمكان انتصار الشعوب على المستعمر المنتصر.

وفي مطلع الخمسينيات تأكدت ظاهرة إمكان انتصار الشعوب بعدة أحداث عيانية كثورة ٢٣ يوليو في مصر عام ١٩٥٢م، كثورة مصدق في إيران عام ١٩٥٣م.. وإذا انتكست ثورة مصدق بالمؤامرات الاستعمارية، فإن المؤامرات الاستعمارية عجزت عن إسقاط ثورة مصر. وبهذا تجددت ظواهر انتفاضات الشعوب في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

قبل تفجرات الخمسينيات كانت في بلادنا ظاهرة الإعجاب بإنتاج الدول الصناعية، ثم معرفة استغلال الدول الصناعية للمتخلفين.

واكبت الظاهرتين ظاهرة المعارضة المنظمة ضد الاستبداد في الشطر الشمالي من الوطن، والإضرابات العمالية ضد الاستعمار في الشطر الجنوبي.

أما في الخمسينيات فاستجبت أحداث فجرت الشعوب وحقت انتصاراً، كثورتى مصر وإيران وكثورة الجزائر. وفي هذه الفترة تبدت ظاهرة الرفض في شمال الوطن للدراسات القديمة السلفية، باعتبارها معوقاً للتقدم.. وكان في شمال الوطن أكثر من ٥٠ مدرسة تقليدية هي عبارة عن مساجد أقيمت فيها حلقات ودروس الفقه واللغة، وتسمت مدارس مثل مدرسة الشمسية بزمار، المدرسة المتوكلية بضوران، مدرسة جبلة بمسجد أروى.

وعلى هذا القياس تسمى كل مسجد تقام فيه حلقات دروس مدرسة علمية مثل العلمية بوشحة، والمدرسة العلمية بشبام التي تعلم فيها بطلنا حسين الزين عام ١٩٥٤م، فلماذا كانت تسمى تلك المساجد مدارس علمية..؟

لغياب مدارس نظامية تسمى كل مسجد تُلقى فيه دروس فقهية ولغوية مدرسة علمية، وكانت تقام هذه الحلقات من الدروس في كل مدينة أو قرية يسكنها مجموعة من البيوت المتعلمة، مثل بيت شرف الدين في كوكبان وشبام، مثل بيت المتوكل في وشحة وشهارة، مثل بيت الشبيبي في ذي حود أنس، مثل الكباسية في قرية الكبس، مثل إريان في منطقة يريم، مثل المكلا في حضرموت.. فلأن هذه المناطق عامرة ببيوت الفقهاء، أمكن

أن تقام فيها دروس كالمداثن من أمثال الجامع الكبير بصنعاء
والمدرسة الشمسية بدمار.

كانت هذه المدارس مستمرة حتى بعد افتتاح دار العلوم بصنعاء
سنة ١٩٢٥م. وكان الذين يتخرجون من تلك المساجد يحصلون
على أعمال حكومية كتخمين زكوات، كقبض واجبات كإصلاح
بين مختصمين، كمحاكم شرعية، وكتقسيم تركات. وكان بطلنا
حسين الزين، من تلك البيوت الشهيرة بالتعليم والتعلم.

* * *

نشأ بطلنا حسين الزين في الثلاثينيات في ظل بيئة فقهية ولا بد
أنه تعلم الابتدائي وغيره. وإنما كانت ترجع بداية التعليم إلى
رغبات الصبيان واهتمام الآباء.

فلعل حسين الزين تعلم في الأربعينيات مبادئ القراءة والكتابة،
إذ لم يكن في تلك المناطق التي تميزت بالمساجد التعليمية
ابتدائيات منظمة من ستة فصول، فكان التعليم الابتدائي مقصوراً
على كتابة المقروء وقراءة المکتوب وتعلم القرآن على
المصحف، تلي هذه المرحلة مرحلة اللغة والفقه، فالتحق بطلنا
بالمدرسة العلمية بشبام في أوائل الخمسينيات أي في بداية
رفض ذلك التعليم واتهامه بأنه سبب التخلف في كل المناطق،
كما أشار الشاعر أحمد المتوكل بحجة:

نسوقُ المواثر خيرٌ لنا

من المتن والشرح والحاشية

وهذا كان تعبير الفترة لا تعبير شاعر فرد عن نفسه. لأن تلك الفترة كانت تموج بالأخبار المغايرة لما في الكتب مثل انتصار مصر الناصرية على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، مثل إقامة السد العالي في مصر، مثل غزو الفضاء، مثل سقوط حلف بغداد الاستعماري في العراق.

نتيجة تلك الظروف لم يحقق حسين الزين محصولاً من دراسة الفقه واللغة في المدرسة العلمية بشبام، لأن تلك الأحداث والمتغيرات استأثرت باهتمام النشء.

* * *

في عام ١٩٥٤م انتقل حسين الزين من المدرسة العلمية بشبام إلى المدرسة التحضيرية بصنعاء التي فُتحت يومذاك وتعين طلابها، من أبناء المناطق النائية، ومن البيوت المحافظة. وظن أولئك الطلاب أنهم سيجدون تعليماً حديثاً بصنعاء، فإذا بهم لم يجدوا فرقاً كبيراً بين دروس الجامع وبين دروس التحضيرية، لغلبة الدروس الدينية.

صحيح أن دروس النحو كان أقل وأن التشدد في تعليمه دون التشدد في تعليم كتب الهداية، فلنساوي منهج التحضيرية أو قربه من دروس الجوامع لم يقبل عليه بعض التلاميذ الذين لم تتكون لهم قوة حافظة وقدرة لاقطة من أمثال بطلنا حسين الزين، فكانت المدرسة التحضيرية مجرد تجمع شباب لم يخفف عنهم ضجر تلك الدروس التقليدية إلا الكتب المعاصرة التي كان يمكن وصولها إلى صنعاء، ويندر وصولها إلى المناطق النائية، فأقبل

شباب التحضيرية على قراءة الكتب الحديثة، غير أنهم اكتشفوا استغلاق بعضها عن أفهامهم.

فاتهموا المؤلفين المعاصرين أو بعضهم بالغموض، دون أن يفتنوا أن السبب هو ضعف التعليم الابتدائي وغياب التعليم الثانوي الحديث.

وإذا بتلك الدروس القديمة تشكل قاعدة لفهم الكتب الجديدة، عند الذين اقتدروا على تكرارها وتفهمها، لأنها أصبحت صعبة الهضم على الشباب المعاصر.

بهذا شكل ضعف التعليم ضعف التثقيف الشخصي نتيجة احتياجه لأساس تعليمي. وهذا ما اكتشفه طلاب التحضيرية والثانوية عندما حصلوا على الكتب المعاصرة بفضل المكتبات التي بدأت تنفتح في آخر الخمسينيات مثل مكتبة عبدالله الخولاني قبل التحاقه بالحربية ومكتبة الجيل الجديد، ومكتبة الذبحاني في تعز.

لقد عثر الطلاب على الكتب المعاصرة وتبينوا حاجتهم إلى التعليم الذي يتتقون على أساسه. فاستفاد من تلك الكتب الذين حذقوا اللغة وأساليب البيان، أما الذين مالوا إلى الكتب النحوية الميسرة، فقد سبب يسرها في نسيان قواعدها عند الذين لم يمارسوا الإعراب تطبيقاً كتابياً أو قرائياً أو تدريسياً.

لهذا كان انفتاح الكلية الحربية المجال الوحيد الذي تتبدى فيه مواهب أولئك الرافضين للدراسة التقليدية.

* * *

التحق بطلنا حسين الزين بالكلية الحربية عام ١٩٥٨م بعد أن اختلطت التحضيرية والثانوية، استعداداً للانتقال إلى الكلية الحربية، في ذلك الحين انفتح مرفق آخر هو مجال التمريض فدخل شبان وشابات مدرسة التمريض، وفي نفس الوقت التحق شبان من التحضيرية والثانوية ودار العلوم بالكلية الحربية، وكان حسين الزين وأحمد الكبسي متشابهين في قلة المحصول الذهني وفي قوة الاستيعاب العسكري، كلاهما أبدى ضجره من الدراسة التقليدية، وكلاهما حقق تفوقاً في الألعاب الرياضية التي استحدثتها أواخر الخمسينيات، وكلاهما تفجر بالحيوية والذكاء في استيعاب الدراسة العسكرية وعلومها.

من ذلك اليوم عرف اليمينون قيمة تعدد المرافق على اختلاف المواهب، فما كل الناس يصلحون لقال زيد وعمرو ولمسائل على خليل الفقهية، إذ يصلح البعض للهندسة والبعض للعسكرية والبعض للرسم.

فقد تفوق الذين سئموا من الدراسة التقليدية في المجال العسكري لاختلافه عن مسائل الكتب الصفرة المعقدة، وكان حسين الزين وأحمد الكبسي أنجب التلاميذ في الكلية الحربية وأنشطهم وأكثرهم انضباطاً، لأنهما اكتشفا وجودهما في هذا المرفق الجديد، من دخولهما الكلية إلى سنة التخرج.

* * *

كان التخرج من الكلية الحربية إلى ميدان الثورة الذي كلف خريجي الحربية وزملاءهم من الضباط الأوائل تحمل الأعباء

الباهضة، لأنهم تحولوا من ضباط إلى ثوار عليهم أن يُعرفوا الشعب اختلاف العهد الجديد وقيمة الفقرة إلى الأمام، فاندفع الضباط إلى المواقع القتالية دون أن يحسوا نزوعاً إلى منصب سياسي أو مكان قيادي كما يزعم البعض، وإنما قاتل كل الضباط تاركين السياسة لرجالها، إذ كان يهمهم الثورة أولاً والسياسة ثانياً، إذ حُلَّت الشرعية الثورية محل الشرعية السياسية، وكان من أهداف الثوار بناء جيش قوي يدافع عن البلاد.

وأدوا مهمة الجيش القوي قبل تكوينه لكي يشكلوا نواته، فتعين حسين الزين قائد الشرطة العسكرية تحت مبدأ العسكرية ضبط وربط. وتحت مفهوم تعدد الأسلحة، ففي عام ١٩٦٣م رأت القيادة وجوب تشكيل شرطة عسكرية، لكي تضبط الجيش الذي يضبط أمن البلاد.

وكانت هذه الإدارة من استحداث الثورة، إذ لا عهد للجيش اليمني بما يسمى الشرطة العسكرية فكان البطل حسين الزين أول من دفع ضريبة التجديد وصنع الجديد، فما كاد يزاول عمله كقائد للشرطة العسكرية حتى وقع شهيد النظام الجديد. أمر بسجن أحد الجنود عقاباً على مخالفته وخرج يدرب الأفراد في الميدان. وفي وقت أدائه هذا الواجب انفلت الجندي السجين فأطلق على قائده حسين الزين الرصاص فسقط شهيداً من فوره.

ألا تستحق الحياة الجديدة تضحية غالية في مستوى غلاوة الوطن الذي يتوق إلى كل جديد..؟

الفهرس

- المقدمة: عبدالرحمن مراد ٤
- ثوار في رحاب الله: ٨
- ١- عبدالرحمن محمد المحبشي ٩
- ٢- محمد صالح الشراعي ١٥
- ٣- محمد علي الحنكي ٢٢
- ٤- علي عبدالمغني ٢٨
- ٥- قاسم غالب أحمد ٣٤
- ٦- صالح الرحبي ٣٩
- ٧- محمد عبدالكريم الصباحي ٤٥
- ٨- عبدالله عبدالوهاب نعمان ٥٢
- ٩- عبدالغني علي أحمد ٦٠
- ١٠- علي ابن علي الآنسي ٦٦

- ١١- أحمد سالم المعمرى ٧٤
- ١٢- أحمد ابن أحمد الكبسى ٨٢
- ١٣- أحمد عبدالوهاب السماوى ٨٩
- ١٤- على سيف الخولانى ٩٦
- ١٥- محمد عبدالولى ١٠٤
- ١٦- محمد الحمزى ١١١
- ١٧- على سعد الربيعى ١١٨
- ١٨- على عبدالله السمة ١٢٥
- ١٩- محمد مطهر زيد ١٣٣
- ٢٠- محمد غالب صدقة ١٤٠
- ٢١- حمود عائض الجائفى ١٤٧
- ٢٢- عبدالله حمود حمران ١٥٥
- ٢٣- عبدالله بغدة ١٦٣
- ٢٤- جمال سيف ١٧٠

- ٢٥- سعد علي الأشول ١٧٧
- ٢٦- محمد عبدالعليم البركاني ١٨٦
- ٢٧- علي محمد عبده ١٩٤
- ٢٨- حسين الزين ٢٠٢

